تأملات
في سورة الأعلى

تأليف

د. إيهاب عبده محمد حيدرة

رواق للتنسيق والإخراج الفني

تأملات
في سورة الأعلى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تأملات في سورة الأعلى

تأليف
د. إيهاب عبده محمد حيدرة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اسم الكتاب: تأملات في سورة الأعلى
المؤلف: إيهاب عبده محمد حيدرة
التصميم والإخراج: رواق للتنسيق والإخراج الفني
المقاس: ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات: ١١٧

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

رواق للتنسيق والإخراج الفني

انقر للتواصل
اليمن - عدن - مدينة الشعب
00967 781246838
00967 771757951
Rwak.print@gmail.com
rwaqtanseek

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾

مُقَدِّمَة

الحمدلله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن القرآن العظيم، عصمة لمن اعتصم به، وحرزٌ من النار لمن اتبعه، ونور لمن استنار به، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقه أن يؤمنوا به، ويعملوا بمحكمه فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويعتبروا بأمثاله، ويقولوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران آية رقم: [٧]، ووعدهم على تلاوته، والعمل به النجاة من النار ودخول الجنة، وندب خلقه إذا هم تلوا كتابه أن يتدبروه ويتفكروا فيه بقلوبهم، وإذا سمعوه من غيرهم أن يحسنوا استماعه، وإن مما يعين على فهم القرآن؛ الاستعانة بالله تعالى، ثم النظر بعين البصر والبصيرة، فيما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير القرآن وفضائله وأسباب نزوله.

ولذا فإن أشرف العلوم والمعارف وأعلاها قدراً علم كتاب الله ﷻ، فكل العلوم الإسلامية تدور حوله، وهي مستقاة من معينه، غير أن علم التفسير هو أقواها علاقة به؛ إذ به يعرف المقصود من كلام رب العالمين، ولذا تسابق علماء الإسلام في ميدانه الفسيح، فألفوا فيه المطولات، والمختصرات، وما بين ذلك.

ولهذا استعنت بالله تبارك وتعالى، ولا حول ولا قوة إلا به، في تفسير سورة من سور القرآن الكريم وسميت هذا البحث بعنوان: (تأمّلات في سورة الأعلى) وهو مختصر من رسالة الماجستير والتي هي بعنوان: (سورة الأعلى دراسة تحليلية وموضوعية).

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، وأن يبارك فيه وينفع به، كما أسأله سبحانه أن يرزقني علماً نافعاً، ورزقاً طيباً وعملاً صالحاً متقبلاً.

كتبه

د. إيهاب عبده محمد حيدرة

٢٥/رمضان/١٤٣٧هـ

٢٠١٥/٧/١٢م

التعريف بالسورة

لسورة الأعلى عدة أسماء، كلها يدور حول الآية الأولى منها:

سورة الأعلى: وهو الاسم الذي كتب بالمصاحف، وأغلب كتب التفسير.

وسورة سبح اسم ربك الأعلى: وهو الاسم الذي ورد بالسنة في أحاديث كثيرة.

وسورة سبح: جاء عن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهي سورة مكية، وهو قول الجمهور. وترتيبها في نزول القرآن؛ السورة الثامنة المعدودة في ترتيب النزول. وقيل: السابعة. وقبل سورة الأعلى سورة التكوير وبعدها - أي سورة الأعلى - سورة الليل.

وأما ترتيبها بالمصحف: فقبلها سورة الطارق وبعدها سورة الغاشية.

وهي السورة السابعة والثمانون بحسب الرسم القرآني.

وعدد آياتها: تسعَ عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وعدد كلماتها: اثنان وسبعون كلمة تقريباً، وقيل ثمان وسبعون كلمة.

وعدد حروفها: مائتان وثلاث وتسعين حرفاً تقريباً.[1]

---

(١) «البيان في عد آي القرآن» لأبي عمرو الداني الأندلسي، تحقيق الدكتور غانم قدّوري الحَمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، دولة الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. (صـ ٢٧١).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ بها في الظهر[1] والوتر[2] والجمعة والعيدين[3] لمكانتها في الشريعة الإسلامية.

فهذه بعض التأمّلات القرآنية، وتدبرات لآيات سورة الأعلى لاشتمالها على مواضيع متعددة، منها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتعلق بالعبادة، ومنها مايتعلق بالتأمل بخلق الله وبدائع صنعه تعالى؛ فافتتحت السورة الكريمة بتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل مالا يليق به، وذكر الدلائل على قدرته ووحدانيته سبحانه بخلق الإنسان وخلق كل مافي الأرض مما فيه بقاؤه، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾، وتتناول الوحي والقرآن الذي أنزل على الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتيسير حفظه عليه وأن الله معطيه شريعة سمحة، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾، وتعالج موضوع الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أصحاب القلوب الحيّة وأهل الإيمان والسعادة ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾. واختتمت السورة ببيان فوز من طهّر نفسه من الذنوب والمعاصي والآثام وزكّى نفسه بصالح الأعمال وبيان أن الآخرة هي أبقى للإنسان من الدنيا الزائلة الفانية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ..﴾،

---

(١) جاء عن جابر بن سمرة في صحيح مسلم في رقم (١٠٣٠) (٤/٤٠١). وجاء عن عمران بن حصين كذلك في «صحيح مسلم» رقم (٨٨٥) و(٨٨٦) (٤/ ٣٣٠_ ٣٣١).

(٢) جاء عن ابن عباس وأبي بن كعب وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) عن النعمان بن بشير في صحيح مسلم رقم (٢٠٢٥) (٦/٤٠٥).

وختمت كذلك بأن هذه الإرشادات المذكورة في السورة قديمة، تصدقها جميع الشرائع والديانات السابقة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك كله يخفف عليه لما يلقاه من إعراض المشركين له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن أهم مواضيع السورة أنها تتحدث عن تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وعيب وكل مالا يليق به، والإيمان بمسألة العلو والفوقية - من غير إحاطة ولا كيفية ولا حصر ولا تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه - كما ورد ذلك في الكتاب العزيز وفي السنة الصحيحة، هو أصل هذا الشأن وأساسه.

فمن رسخ في هذه المسألة صار لقلبه قبلة إلى مولاه وفاطره في توجهه وصلاته وعبادته وسائر مساعيه الظاهرة والباطنية، وصار ذلك لقلبه معلقاً، يجول قلبه في الأشياء ثم يعود إلى معلقه، كالفرس يجول ثم يعود إلى آخيته، فالإيمان بعلو الله الذي هو من لوازم الإيمان باسمه (الأعلى) مهم جداً في السير إلى الله، فكان من المناسب ختم صلاة الليل - والليل أشبه شيء بالموت وأقرب إلى العدم وأنسب شيء لذلك التنزيه والإخلاص- التي تعد من أعظم ما يسير العبد إلى ربه بتذكر هذا الاسم كي يصحح السائر الوجهة، ويتذكر القبلة، خاصة إن طرأ عليه ما يفسد نيته، أو يحول قبلته.

وكذلك من أعظم ما يقوي الإخلاص تذكر علو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ سورة الليل آية رقم: ١٩-٢٠، فتخصيص الوصف بالأعلى تنبيه على ما يحصل به إخلاص العمل لله، ولاشك من استحضر أنه سبحانه (الأعلى) اضمحل من قلبه كل ما سواه مما يمكن أن يتوجه إليه، أو ينوي بعمله رؤيته له ونحو ذلك.

وقد يشغل القلب في الصلاة بأمور مختلفة تشتت ذهنه وتفرق قلبه؛ فيأتي هذا الاسم (الأعلى) شفاء لما في الصدور، وتذكيراً بما ينبغي أن تشغل به القلوب.

وكذلك تحدثت السورة عن مبدأ الخلق ومنتهاها، وتقدير الله عز وجل له، والأخبار بأن من تزكى فهو مفلح، والحث والرغبة في الآخرة ونعيمها، وعدم التعلق بالدنيا وبهرجها الزائل، وتؤكد السورة للمؤمن أن العلو الحقيقي له في الآخرة هو في طاعة الله وخشيته في الدنيا، وأن الشقاء والخسران في اجتناب هذه النصيحة والتعلق بالدنيا الفانية، فهذه حقيقة كبرى على المؤمن وضعها بين عينيه في حياته كلها، فتكرر عليه كل حين، ولذلك فهي تقرأ عليه في صلاة الجمعة وصلاة العيدين وصلاة الاستسقاء وصلاة الوتر، ليكون في تذكر دائم لهذه المعاني التي تجعله مستقيماً على طاعة الله تعالى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾

في الآية الأمر بالتسبيح لله سبحانه وتعالى، والتسبيح هو تنزيه وتقديس الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب وأن يماثله أحد، وذلك يدل على كماله، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق به من صفات النقص التي تتنافى مع كماله.

وهذا المعنى قد أطبق على ذكره أهل العلم من أصحاب اللغة والتفسير، في تفسيرهم للفظ: «التسبيح»[1]

(١) «معجم مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت، لبنان، دار الفكر، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، (٣/١٢٥).

قال الزجاج: (لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح : أنه التبرئة لله عزوجل).[١]

ومنه: قول «سبحان الله»، يقال: سبّح الرجل تسبيحاً، أي: قال سبحان الله.[٢]

والتسبيح هو: تنزيه الله عزوجل في الإعتقاد والقول والعمل عما لايليق به سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله.[٣]

جاء عن ابن عباس: (سبحان الله : تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء).[٤]

ويطلق التسبيح على كل ذكر لله تعالى، مثل قوله تعالى في قصة زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ سورة مريم آية رقم: ١١.

---

(١) «معاني القرآن و إعرابه» له، تحقيق عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، (٢/٢٧٨).

(٢) «المحكم والمحيط الأعظم في اللغة» لابن سيده، تحقيق عائشة بنت الشاطئ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م (٣/١٥٤)، و«لسان العرب» لجمال الدين محمد بن كرم ابن منظور، اعتنى بها أمين محمد عبدالوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة: ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، (٦/١٤١_١٤٧).

(٣) «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبدالرحمن عميرة، مع لجنة تحقيق دار الوفاء، المنصورة، مصر، (٤/٥١_٥٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين» لابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة _ الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، (١/٨١) و(٤/١١٢٣_١١٢٤).

ويطلق على جنس الصلاة، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ سورة الصافات آية رقم: ١٤٣. أي من المصلين، وقيل: العابدين، وقوله تعالى:﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ سورة الروم آية رقم: ١٧.

وحديث ابن عمر: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح على الراحلة ... الحديث**».[١]

وحديث: «**اجعلوا صلاتكم معهم سبحة**»[٢] أي نافلة.

لكن أكثر ما يستعمل في النافلة خصوصاً، فإن الفرض لما كان له اسم يخصه جعل هذا اللفظ للنافلة.

قالت عائشة: «**ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي سبحة الضحى قط ، وإني لأسبحها ... الحديث**».[٣]

---

(١) البخاري في «الجامع المسند الصحيح» مع فتح الباري لابن حجر، تعليق عبدالعزيز بن باز، وعبدالرحمن البراك، دار طيبة، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، كتاب تقصير الصلاة، باب ماينزل للمكتوبة، رقم (١٠٩٨) (٣/٤٧٧)، ومسلم في «صحيحه بشرح النووي» لأبي حسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، والشرح لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ١٤٢٥هـ _ ٢٠٠٤م، كتاب صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت، رقم (١٦١٦) (٥/٢١٧).

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب الندب إلى وضع الأيدي على الركب في الركوع، رقم (١١٩١) (٥/١٩_٢٠) عن ابن مسعود.

(٣) البخاري في «صحيحه» كتاب التهجد، باب تحريض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، رقم (١١٢٨) (٣/٥١٥) و مسلم في «صحيحه» =

وسبب ذلك: من باب تسمية الشيء باسم جزئه، أو من باب إطلاق اسم البعض على الكل لفضل ذلك الجزء.

وكل هذه الأقوال تشترك في تسمية التسبيح صلاة، وفي هذا مناسبة وهي تعظيم حقيقة الصلاة وأنها تتضمن غاية التنزيه، ومنتهى التعظيم لله رب العالمين.

ويطلق التسبيح على التعجب ، تعجب إكبار، ومن هذا يفهم أن التسبيح يحمل على معنى التعظيم، فالعظيم الذي تحار الأفكار في عظمته هو المستحق لأعظم التسبيح.

ولذا بوب البخاري في «صحيحه»: باب التكبير والتسبيح عند التعجب، وذكر تحت هذا الباب حديث أم سلمة وفيه: «**استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (سبحان الله) ماذا أنزل من الخزائن ؟ ... الحديث**».[1]

وذكر أيضاً حديث صفية بنت حيي في قصة اللذين قال لهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**على رسلكما إنها صفية فقالا: سبحان الله ... الحديث**».[2]

= كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات ... رقم (١٦٥٩) (٥/٢٣٦).

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم (٦٢١٨) (١٤/١٠٣).

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم (٦٢١٩) (١٤/١٠٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب بيان مايستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٥٦٤٣) (١٤/٣٨١).

وسُبُحات وجه الله: أي جلال الله جل ثناؤه وعظمته.[١]

وجاء في صفاته سبحانه أنه السُّبُّوح القدوس، لحديث: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: (سُبُّوح قدوس) رب الملائكة والروح**».[٢]

فالسبوح: المنزة عن كل نقص وسوء، أو الذي يسبحه كل شيء.

والقدوس: الطاهر، أو المبارك، أو الذي يقدسه ويعظمه كل شيء.[٣]

والتسبيح حيث وقع في الكتاب والسنة فهو مضاف إلى اسم من أسماء الله تعالى أو ضمير عائد إليه سبحانه، وكثيراً مايأتي التسبيح - مع الاسم أو الضمير المضاف إليه - مقروناً باسم آخر، أو أكثر من أسماء الله الحسنى، أو مقروناً بصفة فأكثر من صفاته العليا.

تسبيح الله سبحانه وتعالى لنفسه

إن أعظم المسبحين لله تعالى هو الله نفسه، حيث ورد في القرآن تسبيح الله لنفسه في آيات كثيرة، بلغت سبعاً وعشرين آية، من تسع عشرة سورة، نذكر هنا بعضها:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾. سورة البقرة آية رقم: ١١٦.

---

(١) لسان العرب، ومقاييس اللغة، المرجع السابق.

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب مايقال في الركوع والسجود، رقم (١٠٩١) (٤/٤٢٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) «لسان العرب» لابن منظور (٦/١٤٣).

سبح الله تعالى نفسه في هذه الآية تنزيهاً له من اتخاذ الولد، وبين أن جميع ما في السموات والأرض مملوك له وعبيد له، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذه الولد.(١)

٢- وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة النحل آية رقم: ١.

سبح الله تعالى في هذه الآية نفسه تنزيهاً له عن الشرك به وعبادتهم معه ماسواه من الأوثان والأنداد، بعد أن أخبر أن ما وعد به من قيام الساعة ومحاسبة الناس بمنزلة ما قد أتى، فلا يستعجله المكذبون؛ لأن ما هو آت فإنه قريب.(٢)

٣- وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الإسراء آية رقم: ١.

سبح الله تعالى نفسه وعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، حيث أسرى بعبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جزء من الليل من المسجد الحرام بمكة، إلى الأقصى ببيت المقدس، ثم عرج به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السموات العلى، فرأى من آيات الله الكبرى الدالة على كمال قدرته، وتمام سلطانه، وسعة ملكه، إنه سبحانه هو السميع البصير.(٣)

---

(١) «مجموع الرسائل الكبرى» لأبي العباس أحمد عبدالحليم بن تيمية الحراني، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (١/ ٢٢_ ٢٣).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ١٨٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، (٥/ ٥_ ٦).

٤- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الطور آية رقم: ٤٣.

٥- وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الحشر آية رقم: ٢٣.

وفي هذه الآيات يسبح الله تعالى لنفسه تنزيهاً لها من الشرك، وعن كل وصف لا يليق بجلاله وعظمته.

وجاء في السنة تسبيح الله لنفسه، كما في الحديث القدسي: قال الله: «**كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**».(١)

فقوله تعالى: «**سبحاني**» صريح في تسبيح نفسه المقدسة.(٢)

تسبيح الملائكة

جاء بالكتاب والسنة أوصاف عظيمة للملائكة دالة على صفاء طبيعتهم، وكمال عبوديتهم لله تعالى، وتمام طاعتهم له سبحانه.

ومن أعظم تلك الأوصاف تسبيحهم لله تعالى.

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، رقم (٤٤٨٢) (٩/٦٤٨) عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (٩/٦٤٨_ وما بعدها).

جاء بالكتاب والسنة تسبيح الملائكة على العموم وتسبيح الملائكة على الخصوص.

أما تسبيح خواص الملائكة من حملة العرش والحافين حوله، جاء في موضعين من القرآن:

١- في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الزمر آية رقم: ٧٥.

٢- وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ سورة غافر آية رقم: ٧.

ففي هاتين الآيتين ذكر الله سبحانه صنفين من ملائكته المسبحة بحمده، وهما: الملائكة الذين يحملون العرش، والملائكة الذين يطوفون حول العرش.

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الآيتين دليل على ما لهما من شأن عظيم، إذ اختارهم الله لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه سبحانه.[١]

وقد جاء عنهم عامة في عدة مواضع من القرآن أن تسبيحهم لله سبحانه دائماً متواصلاً من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة.

---

(١) «معالم التنزيل» لأبي محمد البغوي، تحقيق محمد النمر وعثمان جمعة وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، السعودية، ١٤١٢هـ، (٧/ ١٣٩).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٢٠٦.

وقوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. سورة الأنبياء آية رقم: ١٩ - ٢٠.

وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. سورة فصلت آية رقم: ٣٨.

فهذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل.(١)

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٣٠.

وقوله تعالى - حكاية لقول الملائكة -: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾. سورة الصافات آية رقم: ١٦٥-١٦٦، وكان تسبيحهم لله سبحانه مع الهيبة والإجلال والرهبة لله، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾. سورة الرعد آية رقم: ١٣.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن السعدي، اعتنى به سعد بن فواز الصميل، دار الجوزي، الرياض، السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٣٢هـ، (صـ ٣٤٦، ٦٠٣، ٨٨٨).

ومعنى تسبيح الملائكة هو: الصلاة والذكر والتنزيه والتعظيم والخضوع لله سبحانه وتعالى، ويكون تسبيحهم لله بألسنتهم، بقول: «سبحان الله» أو «سبحان الله وبحمده» أو نحو ذلك.

وهذا قد دلّ عليه حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده**».[1] والله أعلم.[2]

تسبيح الأنبياء

الأنبياء هم صفوة البشر وأكملهم علماً وعملاً وخلقاً، وأتمهم تسبيحاً لله قولاً واعتقاداً وعملاً، لأن الله اصطفاهم برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وذكر الله تسبيح أنبيائه له في القرآن الكريم:

١- تسبيح يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الأنبياء آية رقم :٨٧-٨٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب الذكر والدعاء، (٢٧٣١).

(٢) «التسبيح في الكتاب والسنة» محمد بن إسحاق كندو، مكتبة دار المناهج، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ، (١/ ٢٩٢).

﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. سورة الصافات آية رقم: ١٣٩-١٤٣.

دلت الآيتين أن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سبباً في نجاته ورفع درجاته.

٢- تسبيح موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة الأعراف آية رقم: ١٤٣.

وقال تعالى - حكاية عن موسى -: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾. سورة طه آية رقم: ٢٩-٣٥. يدل أن موسى وأخاه هارون كانا يكثران من التسبيح والذكر لله تعالى. وكذلك تقديم التسبيح على الذكر دليلاً على مزيد اهتمامهما بالتسبيح على وجه الخصوص، مع اهتمامهما بالذكر على وجه العموم.[1]

٣_ تسبيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ

(١) «التسبيح في الكتاب والسنة» محمد بن إسحاق كندو (١/ ٣٠٣).

كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. سورة المائدة آية رقم: ١١٦.

٤- تسبيح خاتم النبيين محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة يوسف آية رقم: ١٠٨.

فالتسبيح هو جوهر العبادة لله سبحانه وتعالى وروحها، لما فيه من الحضور الكامل مع الله، الخالي من الصوارف والعوائق والمنغصات.

فالتسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب، بل هو أنفع الدواء للنفس البشرية إذ يمنحها الهدوء التام والسكينة والطمأنينة والراحة، ويفرغ الشحنات الضاغطة على فكره ونفسه وقلبه، ولهذا أوصى الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يستعمل التسبيح علاجاً لما ينتابه من ضيق صدر وآلام، بسبب ما يلاقيه من قومه من جحود واستهزاء وتكذيب واتهام بالسحر والجنون وغير ذلك.

وقد جاء الأمر بالتسبيح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ست مناسبات:

١- لما لقيه من كفار قريش من مقالات مؤذية، فأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾. سورة ق آية رقم: ٣٩ - ٤٠.

فأرشده الله إلى التسبيح بحمد الله سبحانه ، ويكون هذا التسبيح علاجاً نافعاً لما يؤلمه أو يزعجه من تلك الأقاويل: بالتسبيح قبل طلوع الشمس،

وقبل غروبها، وأثناء الليل، وبعد الصلوات التي يسجد فيها العبد لربه جل وعلا.[1]

٢- ولما اشتدت أذية المشركين لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاق صدره بما يقولون، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ سورة الحجر آية رقم: ٩٧- ٩٩.

أي واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي هو اليقين الذي لا يشك فيه شاك، ومن عبادته لربه قيامه بوظائف رسالته، فأرشده بهذه الآيات إلى أن يسبح بحمد ربه ويكون من الساجدين لربهم، والخاضعين له، والمستسلمين لمقاديره، وأن يعبده في كل أحواله حتى يأتيه الموت.

٣- قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ سورة غافر آية رقم: ٥٥.

ذكر الله سبحانه في هذه الآية الاستغفار إلى جانب التسبيح مع الأمر بالصبر، ولما كانت حالة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متشوفة بتحقيق وعد الله له بالنصر، طمأنه الله بقوله له : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

٤- لما كرر المشركون إيذاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتهامهم له أنه كاهن أو مجنون أو شاعر، ويتربصون به ريب المنون، فهم ينتظرون موته ليتخلصوا من دينه، فأنزل الله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ سورة الطور آية رقم : ٤٨-٤٩.

---

(١) قال ابن العربي في «تفسيره»: لا خلاف أن المراد بقوله تعالى هاهنا «سبح» صلِّ، لأنه غاية التسبيح وأشرفه. (٣/ ٢٦٠).

فزاده في هذه الآية أوقات التسبيح عند كل قيام، وأكد التسبيح أثناء الليل، وأضاف التسبيح في آخر الليل عند إدبار النجوم، وأعلم الله نبيه بأنك بمرأى منا، نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين.

٥- قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ سورة طه آية رقم: ١٣٠.

هذه الآية نزلت في المرحلة المدنية، وفيها تكرار النصيحة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في سورة ق.

٦- مانزل آخر سور من القرآن، سورة النصر، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ سورة النصر آية رقم: ١-٣.

في هذه السورة إشعار بانتهاء مهمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحياة الدنيا.(١)

تسبيح المؤمنين

أخبر الله سبحانه في كتابه عن المؤمنين ومدحهم بتسبيحهم له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

(١) «معارج التفكر ودقائق التدبر» تأليف: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، (١/ ٤٧١_ ٤٧٤). بتصرف.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٩٠-١٩١.

وقال تعالى - مخبراً عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب -: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ سورة الإسراء آية رقم: ١٠٧-١٠٨.

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة النور آية رقم: ٣٦-٣٨.

وجاء بالسنة النبوية تسبيح المؤمنين لله سبحانه، كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون حلق أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عزوجل - وهو أعلم منهم -: مايقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك... إلى أن قال... لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً...**» الحديث.[1]

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عزوجل، رقم (٦٤٠٨) (١٤/٤٥٧_٤٥٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الذكر، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٦٧٨٠) (١٧/١٧).

يشير الحديث إلى أن العبد المؤمن يكون أكثر لله تسبيحاً كلما كان أقوى بالله إيماناً وأشد به يقيناً، لقول الملائكة: «**لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً**».

يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة، لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب، بخلاف الملائكة في ذلك كله.[1]

تسبيح الكائنات

جاء في الكتاب والسنة إسناد التسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة؛ من الحيوانات والنباتات والجمادات، العاقلة وغيرها، والناطقة وغيرها، والنامية والجامدة، وكل ما يصدق عليه أنه شيء، مما خلق الله في السماوات والأرض، أو مابينهما من المخلوقات التي لايحيط بها ولايعرف عددها إلا الله سبحانه، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً.

جاء تسبيح الكائنات بآيات مجملة، وتارة مفصلة، وتارة بهما معاً، منها:

أما الآيات التي ذكر فيها تسبيح الكائنات إجمالاً، منها:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة الحديد آية رقم: ١.

وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة الحشر آية رقم: ١.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١٤/٤٥٧_ ومابعدها).

ففي هاتين الآيتين أسند التسبيح بصيغة فعل الماضي لدلالة على تسبيح الله في الأزمان الماضية منذ إنشائها ، فكل مافي السماوات والأرض مفطور على تسبيحه منذ نشأته وتكوينه.

(وختم الآيات باسميه العزيز والحكيم دلالة على أنه سبحانه بقدرته الغالبة الحكيمة هو الذي فطر الكائنات غير العاقلة على التسبيح منذ إنشائها).[1]

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة الحشر آية رقم: ٢٤.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة التغابن آية رقم: ١.

ففي هاتين الآيتين أسند التسبيح بصيغة المضارع، دلالة على دوام تسبيح مافي السماوات والأرض من كائنات، وتجدد تسبيحها في كل وقت ، ما مر عليها زمان من لحظة الحال إلى كل أزمان المستقبل.

فيجب على المرء أن يؤمن بتسبيح كل شيء لله تعالى، ويكل علم ذلك إلى خالقه، ويعلمَ أن لله في مخلوقاته علماً لا يطلع عليه غيره، وأنه تعالى لم يخف عن الناس تسبيح سائر الكائنات إلا لحكمة يعلمها.

ومعرفة العبد بأن كل شيء في هذا العالم يسبح لله بحمده، لا ريب أن ذلك يزيد في شعوره بعظمة الله تعالى، وخشيته منه، وتوجهه إليه وحده دون ماسواه، وأن ذلك يكون منهضاً له على التسبيح ومهيِّجاً له على ذكر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) «معارج التفكر» لحبنكة (١/ ٤٧٦).

وأما الآيات التي ذكر فيها تسبيح الكائنات مفصلاً، منها:

قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ سورة الرعد آية رقم: ١٣.

آيات جمعت بين التفصيل والإجمال لتسبيح الكائنات، منها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سورة النور آية رقم: ٤١.

ففي الآية إخبار عن تسبيح جميع من في السماوات والأرض له على العموم، وعن تسبيح الطير له على الخصوص.

وجاءت السنة كذلك بتسبيح الكائنات لله، منها:

١- تسبيح النمل لله تعالى: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قرصت نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله؟**».(١)

٢- تسبيح الطعام بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لله سبحانه: عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «**فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل**».(٢)

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب، رقم (٣٠١٩) (٧/ ٢٧٦)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٥٨١٠) (١٤/ ٤٥٧_ ٤٥٨).

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٩) (٨/ ٢٣٤).

وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ سورة الإسراء آية رقم: ٤٤.

وهذه الأدلة تدل على أن الكون كله يسبح بحمد ربه، ولا يستثنى من هذا الشي إلا الكافرون بالله وباليوم الآخر،[١] فهم لايسبحون في حدود مجالات أعمالهم الاختيارية.

أما المجبورات من ذواتهم التي لا تخضع أعمالها لإرادتهم فهي منسجمة مع سائر ما في الكون، كخلايا أعضائهم وحركات قلوبهم ، وجريان دمائهم، وكل ذرة فيهم، فتدخل في سجود الكون كله طوعاً أو كرهاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ سورة الرعد آية رقم: ١٥.

فمن شاء من ذوي الإرادات الحرة أن ينسجم مع الكون في حركته تجاه ربه فليكن مسبحاً بحمد الله ضمن المسبحين والمسبحات، والحامدين والحامدات، وليحذر من أن يكون شاذاً مخالفاً لئلا يطرد بشذوذه إلى جحيم المجرمين.[٢]

---

(١) ورد حديث حسنه بعضهم، عن عمرو بن عبسة مرفوعاً : «**ما ستقل الشمس - أي ما ارتفع - فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح الله بحمده، إلا ما كان من الشياطين، وأعتى بني آدم ... الحديث**». أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٤٩) (صـ٧٧) تحقيق بشير محمد عيون، دار البيان، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٢) «معارج التفكر» لحبنكة (١/ ٤٨٠).

وتسبيح وحمد غير ذي الحياة يكون بلسان الحال، وقد يكون كلاماً، وهذا ممكن عقلاً، وغير مستبعد على قدرة العزيز الخالق الرب الذي لا خالق غيره، ولا رب سواه، ولا يعجزه سبحانه أن يجعل كل شيء في الكون صغيراً أو كبيراً في الوجود يسبح بحمد ربه تسبيحاً يمكن أن يسمعه ويفهمه من هيأه الله لاستماعه وفهمه، كتسبيح الطعام، والحجر، والشجر.

ويتبين بهذا أن تسبيح الكائنات على ضربين: تسبيح بالاختيار وهو تسبيح الملائكة والأنبياء والرسل والمؤمنين من الجن والإنس، وتسبيح بالتسخير وهو سائر الكائنات من الحيوانات والنباتات والجمادات وغيرها مما يصدق عليه أنه شيء، فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح لله اختياراً أو تسخيراً تسبيحاً حقيقياً بلسان المقال.[1]

تسبيح أهل الجنة

ولا ينتهي التسبيح بانتهاء هذه الحياة الدنيا، وانتقال العباد منها إلى الحياة الأبدية في الدار الآخرة، فقد جاء بالكتاب والسنة أن أهل الجنة يسبحون الله تعالى في الجنة، والجنة هي الجزاء الكبير، والثواب الجزيل، والفوز العظيم، الذي أعده الله لعباده المؤمنين، وأوليائه المتقين، في الحياة الآخرة بعد هذه الحياة الفانية، ونؤمن بها وأنها موجودة.

---

(١) «المفردات في غريب ألفاظ القرآن» لأبي القاسم الحسين الراغب الأصفهاني، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز (صـ ٢٩٣)، و«التسبيح بالكتاب والسنة» محمد كندو (١/ ٣٦٩_ ٢٧٠).

قال الله تعالى - في أهل الجنة -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة يونس آية رقم: ٩-١٠.

وجاء في السنة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول زمرة يدخلون الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً**».[(١)]

وفي لفظ عن جابر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وفيه: «**يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس**».[(٢)]

وهذا التسبيح الذي يلهمه أهل الجنة هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس في الجنة، وتتلذذ به ، ولولا تمتع أهل الجنة بذلك التسبيح الذي هو لهم كالنفس، لم يكن الأمر كذلك.

وسببه تنور قلوبهم بمعرفة الله وامتلائها بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر من

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٥) (٧/ ٥٣٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها، وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً، رقم (٧٠٨٠) (١٧/ ١٧١).

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها، وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً، رقم (٧٠٨١_٧٠٨٤) (١٧/ ١٧١_ ١٧٢).

ذكره، وهكذا يكون اشتغالهم بالتسبيح أعظم من كل شيء، وألذ عليهم من المآكل والمشارب والمناكح.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المسبحين له في الدنيا والآخرة، إنه سبحانه جواد كريم.

صفة العلو

والأعلى: هو اسم الله تعالى يدل على صفة العلو، وصفة العلو هي نموذج لجميع الصفات، ولأهمية صفة العلو وخطورة الكلام فيها، أفردها كثير من العلماء بالتأليف.(١)

توسط أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات بين المعطلة وبين الممثلة.

فهدى الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقيدة، فقالوا: الذي دل عليه دليل من كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنا بجميع أسماء الله وصفاته الثابتة في النصوص الشرعية، فنصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تعطيل ولا تأويل ومن غير تمثيل ولا تكييف، ونؤمن بأنها صفات حقيقية،

---

(١) ومن أهم ما كتب في هذا الموضوع:
١- كتاب صفة العلو لابن قدامة.
٢- كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم.
٣- كتاب العلو للذهبي.
٤- كتاب العرش لأبي بكر بن أبي شيبة.
٥- كتاب العرش لأبي عبيد الهروي.

تليق به سبحانه، ولا تماثل صفات المخلوقين؛ تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الشورى آية رقم: ١١.

وبقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على الممثلة.

وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة؛ لأن فيه إثبات السمع والبصر.

فالآية الكريمة منهج واضح في باب الأسماء والصفات اتخذها أهل السنة لهم نبراساً في فهم تلك النصوص، فيقدمون النصوص على العقل، ويجعلون العقل وسيلة لفهم النصوص، وليس شرطاً في معرفة العلوم، فهم توسطوا في أمر العقل كذلك، فلم يقدموه على النصوص كالمعتزلة وغيرهم، ولم يهملوه ويذموه كما فعل الغلاة من الصوفية، فعابوا العقل، وأقروا ما يكذب به صريح العقل، وصدّقوا بأمور يعلم صريح العقل بطلانها.

أما أهل السنة فهم وسط في باب العبادات، ووسط في باب الأسماء والصفات، ووسط في باب القضاء والقدر - كما سيأتي إن شاء الله -، ووسط في باب الوعد والوعيد - كذلك كما سيأتي إن شاء الله -، ووسط في باب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[1]

وصفة العلو - وهي موضوع فصلنا - هي نموذج لجميع الصفات، ولأهمية صفة العلو وخطورة الكلام فيها، أفردها كثير من العلماء بالتأليف.

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور أهل العلم والإرادة» لابن القيم، تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، (٣/ ٣٠٣_ ٣٠٦)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٧٩٠_ ومابعدها).

الأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل شيء، واسمه الأعلى أي صفته أعلى الصفات.[1]

انقسم الناس في معية الله سبحانه وتعالى لخلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: إن معية الله لخلقه مقتضاها العلم والإحاطة في المعية العامة، ومع النصر والتأييد في المعية الخاصة، مع ثبوت علوه بذاته واستوائه على عرشه.

وهذا القسم هو مذهب السلف.[2]

القسم الثاني: يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض، مع نفي علوه واستوائه على عرشه.

وهذا القسم مذهب الحلولية من قدماء الجهمية، وأنكر هذا جميع سلف الأمة.

القسم الثالث: يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض، مع ثبوت علوه فوق عرشه.

فالقسم الأول: وهو مذهب السلف عندهم أن علو الله سبحانه تعالى من صفاته الذاتية.

وينقسم إلى قسمين:

١- علو ذات، ومعناه أن الله بذاته فوق جميع خلقه .

٢- علو صفات، ومعناه أنه ما من صفة كمال إلا والله تعالى أعلاها

---

(١) «اللسان» لابن منظور، مادة (ع ل ا) (٩/ ٣٧٧_ ٣٨٦).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٨١_ ٣٨٧).

وأكملها سواء كانت من صفات المجد والقهر أم من صفات الجمال والقدر.

وفرق بين العلو والاستواء؛ لأن العلو صفة ذاتية أزلية، والاستواء (علو خاص) صفة فعلية.

والفرق بين الذاتية والفعلية: أنّ الذاتية لا تعلق لها بالمشيئة، والفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الرب، فهو استوى متى شاء.

فحينئذ يدخل في العلو ثلاثة أشياء:

١- علو القهر والغلبة والسلطان، وهذا لا ينكره أحد.

٢- علو القدر والمنزلة، وهذا كذلك لا ينكره أحد.

٣- علو الذات، وهذا ينكره أهل البدع.

فلله سبحانه العلو المطلق من جميع الوجوه، يدل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.[١]

أما أدلة الكتاب الكريم، منها:[٢]

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في عدة مواضع. سورة الأعراف آية رقم: ٥٤. وسورة يونس آية رقم: ٣. وسورة الرعد آية رقم: ٢. وسورة طه آية رقم: ٥. وسورة الفرقان آية رقم: ٥٩. وسورة السجدة آية رقم: ٤. وسورة الحديد آية رقم: ٤.

---

(١) «الحجة في بيان المحجة شرح عقيدة أهل السنة» لأبي القاسم الأصبهاني، تحقيق محمد بن محمد أبو رحيم، دار الراية، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، (٢/ ١١٤)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٨٨_ ٣٨٩).

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٨١).

٢- وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ سورة فاطر آية رقم: ١٠.

٣- وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ سورة النحل آية رقم: ٥٠.

وغيرها من الآيات الورادة في هذا الشأن مما لا يكاد يحصى لكثرته.

وأما الآحايث فكثيرة جداً، يتعذر حصرها وإحصاؤها، منها:

١- حديث الجارية، وفيه: «**فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أين الله؟: قالت: في السماء. فقال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقها، فإنها مؤمنة**».[(١)]

٢- وحديث: «**زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات**».[(٢)]

٣- وحديث: «**ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر من في السماء صباح مساء**».[(٣)]

وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سماواته مستو على عرشه.

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ماكان من إباحته، رقم (١١٩٩) (٥/٢٣_٢٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم (٧٤٢٠) (١٧/٣٩٠) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله : وإلى عاد أخاهم هوداً .. رقم (٣٣٤٤) (٧/٦٢٤_٦٢٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (٢٤٤٩) (٧/١٦٣) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الأوزاعي: (كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات).[1]

وأما العقل: فقد دل على وجوب صفة الكمال لله تعالى، وتنزيهه عن النقص، والعلو صفة كمال، والسّفل نقص، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة: فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة، يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع.

والقسم الآخر: استدلوا بعدة أدلة، منها:

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة الحديد آية رقم: ٤.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة المجادلة آية رقم: ٧.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤) رقم: (٨٦٥)، والذهبي في «العلو» اعتنى به أشرف عبدالمقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م (صـ ١٣٦)، وصححه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» تحقيق زائد النشيري، دار عالم الفوائد، مكة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ (صـ ١٨٦).

فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.

فقالوا: إن المعية هنا تقتضي المخالطة، والحلول معهم بأمكنتهم.

يقال لهم: لايفهم من الآيات ماقالوه؛ ولأن السياق لا يدل عليه، لأن المعية هنا أضيفت إلى الله، وهو أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ولأن المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن لا تستلزم الإختلاط أو المصاحبة في المكان، وإنما تدل على مطلق مصاحبة، ثم تفسر في كل موضع بحسبه.(١)

لوقلنا أن تفسير المعية للخلق تقتضي الحلول والاختلاط، باطل من وجوه:

الأول: أنه مخالف لإجماع السلف فما فسرها أحد منهم بذلك، بل كانوا مجمعين على إنكاره .

الثاني: أنه مناف لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة.

فإذا تبين بطلان هذا القول: تيقن أن يكون الحق أن الله مع خلقه، معية تقتضي أن يكون محيطاً بهم علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وتدبيراً وسلطاناً، وغير ذلك مما تقتضيه ربوبيته مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه.

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٨٣).

التعريف بالخلق

ثم وصف الله سبحانه وتعالى ذلك الاسم بصفات تكون دليلاً على وجود الله وقدرته لمن أراد معرفته، وهي تدل على علوه وقدرته، وتجعل قلب المتأمل فيها ينطق بالذكر والتسبيح قبل لسانه.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥ ﴾

وتكررت كلمة الذي في الآيات وهي تعود إلى الله الأعلى فهو خلق وقدر وأخرج المرعى.

فالخالق هو الله الأعلى الكامل، وخلقه من الكون العجيب إلى النجوم والشمس والقمر إلى الإنسان إلى الأرض والنبات إلى الحيوان والهواء والبحار والأسماك إلى كل شيء فيه كمال الصنعة والإبداع.

فالخَلْقُ: ينقسم في لغة العرب إلى ثلاثة أقسام:[1]

القسم الأول: إيجاد الشيء وإبداعه على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ سورة يس آية رقم: ٧١. وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/٢١٣_٢١٤)، و«القاموس المحيط» مجد الدين محمد يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مركز الرسالة للدراسات وتحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، (صـ ٨٨٠).

﴿أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء آية رقم: ١٠٤. وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ سورة الأعلى آية رقم: ٢-٣.

القسم الثاني: بمعنى التقدير، ومنه قولهم: خلق الأديم: أي قدَّره، ومنه قول زهير بن أبي سلمى[١] - وهو يصف ممدوحه -: ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري.[٢]

أي: أنت إذا قدَّرت أمراً أمضيته، وغيرك يقدِّر ثم لا يقضي الشيء الذي قدَّره.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١٤.

وقول الله تعالى في سورة الأعلى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يدل على المعنيين معاً، لأن أعمال الخلق الربانية فيها التقدير المحكم، وفيها الإبداع على غير مثال سبق.[٣]

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ اشتملت على وصفين: وصف الخلق، ووصف التسوية، وحذف مفعول ﴿خَلَقَ﴾ يجوز أن يقدر عاماً، أو يقدر خاصاً أي الإنسان أو آدم وذلك بقرينة قرن فعل خلق بفعل سوى.

---

(١) شاعر جاهلي، لم يدرك الإسلام، وكان من المقدَّمين على سائر الشعراء . «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، (١/ ١٤١).

(٢) «ديوان زهير بن أبي سلمى» شرح علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، رقم (١٩) (صـ ٥٦).

(٣) «معارج التفكر ودقايق التدبر» لحبنكة (١/ ٤٤٦).

قال الطبري: (الذي خلق الأشياء فسوى خلقها وعدّلها، والتسوية التعديل).[1]

وقيل: خلقه فسوى خلقه، وقيل: خلق الأجساد فسوى الأفهام، وقيل: خلق الإنسان وهيأه للتكليف.[2]

وقال ابن كثير: (أي خلق الخليقة، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات).[3]

وقال عطية سالم: (أطلق الخلق ليعم كل المخلوقات كما تقدم في السجدة، الذي أحسن كل شيء خلقه، والتسوية التقويم والتعديل، وقد خلق الله كل مخلوق مستو على أحسن ما يتناسب لخلقته وما خلق له، فخلق السموات فسواها في أقوى بناء، وأعلى سمك ، وأشد تماسك، لا ترى فيها من تشقق ولا فطور، وزيّنها بالنجوم، وخلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها وجعلها فراشاً ومهاداً،

---

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لأبي جعفرمحمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر و أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية،(١/ ٩٤_ ٩٧) . وسيأتي باسم «تفسير الطبري» وما شابهه. و اعتمدت على، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، بدار هجر، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م اعتمدته من بعد سورة «إبراهيم» (٢٤/ ٣١١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان» لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، (٢٢/ ٢٢٢)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٥٦٤) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٢) .

وخلق الأشجار فسواها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك.

وهذه الحيوانات في خلقتها وتسويتها آية: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ سورة الغاشية آية رقم: ١٧-٢٠.

أما الإنسان فهو في أحسن تقويم، كل ذلك مما يستوجب حقاً له سبحانه أن يسبح اسمه في ذاته، وجميع صفاته، حيث جمع بين الخلق والتسوية، فله كمال القدرة والتنزيه عن كل نقص).[1]

القسم الثالث: بمعنى افتراء الكذب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة العنكبوت آية رقم: ١٧. وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: تفترون كذباً.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ سورة ص آية رقم: ٧.

فالخلق بمعنى التقدير والكذب من صفات المكلفين.

أما الخلق: الذي هو إبداع الشيء وإيجاده على غير مثال سابق، فمتفرد به رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ سورة فاطر آية رقم: ٣. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سورة لقمان آية رقم: ١١.

---

(١) «تتمة أضواء البيان» (٩/١٧٦).

وفي الآية تحد لجميع الخلق، بل إنه سبحانه أثبت عجز الناس أجمعين، ولو اجتمعوا عن آخرهم ، على خلق ذباب واحد، والذي هو أضعف حيوان، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة الحج آية رقم: ٧٣- ٧٤.

ثم إن خلق هذه المخلوقات من السماء والأرض والجبال والأشجار وغيرها من المخلوقات، لم يكن لهواً، أو عبثاً، تنزه الله وتقدس عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ سورة الأنبياء آية رقم: ١٦- ١٨.

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١١٥-١١٦.

وخلق الله الخلق ليعرفوه سبحانه وليعبدوه، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة الطلاق آية رقم: ١٢. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات آية رقم: ٥٦.

وقد ضل في هذا الباب أكثر الخلق، فعرفوا أنه خلقهم وأنه تفرد بخلقهم، وبخلق الكائنات كلها، ومع هذا الإقرار صرفوا العبادة لغيره، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ سورة يوسف آية رقم: ١٠٦.

قال ابن عباس: (من إيمانهم إذا قيل من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا الله وهم مشركون).[1]

ويكثر في القرآن الاستدلال على الكفار باعترافهم الله وحده هو الخالق الرازق المتصرف؛ على وجوب إفراده بالعبادة وإخلاص الدين له، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ١.

وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ٨٤ - ٨٩.

وهنا يعجب العاقل أشد العجب من عقول المشركين، كيف عدلوا عن من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات والأرض، قال الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ

(١) ـ « تفسير ابن كثير » (٤/٥٣٩).

تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ١٩١-١٩٨.

أول ما خلق الله

اختلف العلماء في أول المخلوقات، على قولين:[١]

القول الأول: العرش، فقالوا: أول ماخلق الله من الأشياء المعلومة لنا هو العرش، ثم استوى عليه بعد خلق السماوات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة هود آية رقم: ٧.

حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم ما أنفق الله عزوجل منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه وعرشه على الماء ... الحديث**»[٢]

---

(١) «التبيان في أيمان القرآن» لابن القيم الجوزية، تحقيق عبدالله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، تبع مجمع الفقه الإسلامي جدة، السعودية، (١/ ٣٠٤_ ٣٠٦)، و«فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٤٨٨_ ٤٨٩).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ رقم (٧٤١١) (١٧/ ٣٦٩).
استدل بهذا الحديث ابن منده في كتاب «التوحيد» - تحقيق علي الفقيهي، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ (١/ ٩١) -؛ على أن خلق العرش تقدم على المخلوقات جميعاً، وكون العرش مخلوقاً كما نص عليه الحديث.

وحديث عبدالله بن عمرو قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قدر الله مقادير الخلق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».[1]

فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول ما خلق القلم بحديث عبادة الآتي.

وهذا القول هو قول الجمهور.[2]

القول الثاني: القلم، استدلوا بحديث عبادة بن الصامت: «**أول ماخلق الله القلم فقال له: أكتب، قال رب وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**».[3]

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٦٦٩٠) (٤١٩/١٦).

(٢) نقل ابن كثير أنه قول الجماهير ورجحه كما في «البداية والنهاية»، تحقيق عبدالله التركي، دار هجر، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، (١٢/١_١٣)، وكذلك نقل ابن حجر عن أبي العلاء الهمداني: أنه قول الجمهور، ومال إليه ابن حجر. «الفتح» (٤٨٨/٧_٤٨٩).
وهو قول ابن تيمية «مجموع الفتاوى» للشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، تحقيق عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م (٢١٣/١٨)، واختاره البيهقي في «الأسماء والصفات» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبدالله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوداي، (٢٣٨/٢)، وابن القيم في «التبيان في أيمان القرآن» (٣٠٤/١).

(٣) أحمد في «مسنده» تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، رقم (٢٢٧٠٥) (٣٧٨/٣٧_٣٧٩)، و أبوداود في «سننه» مع عون المعبود لابن أمير العظيم آبادي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)=

ورجح هذا القول ابن جرير الطبري[١] وابن الجوزي[٢].

رد أصحاب القول الأول على هذا الحديث بقولهم: ليس في الحديث دليل على أن القلم أول شيء خلق، بل معنى الحديث أنه في حين خلق القلم، أمره الله بالكتابة ، فكتب مقادير كل شيء.[٣]

قال ابن حجر: (فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق الله ...)[٤]

الراجح هو قول الجمهور، وأن العرش أول المخلوقات، لما يأتي:

١- أن حديث عبدالله بن عمرو دل على أن التقدير وقع بعد خلق العرش، أما حديث عبادة بن الصامت فدل على أن التقدير وقع عند أول خلق القلم؛ ولهذا بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر العرش قبل ذكر كتابة المخلوقات في

= (٢/٢١٧٢)، والترمذي في «سننه» كتاب القدر، باب، رقم (٢١٥٥) (١/٣٥٨) وكتاب التفسير، باب ومن سورة ن والقلم، (٣٣١٩) (١/٥٢٦)، والبزار في «البحر الزخار» رقم (٢٦٨٧) (٧/١٣٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (٦/٩٢).

(١) «تاريخ الرسل والملوك» تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، (١/٣٤).

(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م (١/١٢٠).

(٣) قال ابن القيم في نونيته: والحق أن العرش قبل لأنه... عند الكتابة كان ذا أركان.

(٤) «فتح الباري» (٧/٤٨٨_٤٨٩).

حديث عمران بن حصين وفيه: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض**»[1]، وهذا يدل على تقدمه على الكتابة.

٢- حديث عبادة: أول ما خلق الله القلم؛ بأن معناه عندما خلق الله القلم قال له: اكتب، وذلك بنصب «**أولَ**» و«**القلمَ**» على أنه جملة واحدة، أما إذا كان جملتين ورفع «**أولُ**» و«**القلمُ**» فالمعنى أن القلم أول المخلوقات في هذا العالم، دون العالم الأعلى، وبهذا يتفق الحديثان، ويرتفع ما يتوهم من الإشكال بينهما.

أما حديث أولية النور المحمدي: فقد جاء عن جابر قال: قلت يارسول الله بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال ياجابر: «**إن الله قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة، حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا أنسي، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش ... الحديث**».[2]

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ...﴾، رقم (٣١٩١) (٧/٤٨٣) .

(٢) قال السيوطي في «الحاوي في الفتاوي» دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م: ليس له إسناد يعتمد عليه. (١/ ٣٢٥)، وقال أحمد بن الصديق الغماري في «المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير» دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م : أنه موضوع، وهو جدير بكونه موضوعاً. (صـ٦-٧)، =

فهذا حديث لا أصل له، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو كغيره من البشر؛ خلق من ماء أبيه عبدالله بن عبدالمطلب، ولم يتميز على البشر؛ من حيث الخلقة، كما قال عن نفسه «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون**».[1]

فهو عليه الصلاة والسلام يجزع ويصيبه البرد والحر، ويمرض ويموت، فكل شيء يعتري البشرية من حيث الطبيعة البشرية فإنه يعتريه، لكنه يتميز بأنه يوحى إليه، وأنه أهل الرسالة، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الآية﴾ سورة الأنعام آية رقم: ١٢٤.

خلق الملائكة

الملائكة خلق من خلق الله تعالى، وعالم من عوالم الغيب، جعل الله الإيمان بهم وبما ثبت في حقهم أصلاً من أصول الدين، كما جعل الكفر بهم وبما ثبت في حقهم ضلالاً مخرجاً من الدين.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ... الآية﴾ سورة البقرة آية رقم: ١٧٧، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء آية رقم: ١٣٦.

= وقد تبعه أخوه عبدالله الغماري بوضع الحديث في رسالة أسماها «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر».

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (١٢٨٣_١٢٨٥) (٥/٦٧_٦٨) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والملائكة: هي أجسام لطيفة نورانية تتشكل بأشكال مختلفة.(١)

فالملائكة خُلقوا من نور، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».(٢)

والملائكة هم الموكَّلون بالسماوات والأرض فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، فهم أعظم جنود الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ سورة التحريم آية رقم: ٦.

وجاء في عظم خلق جبريل؛ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها سدَّ الأفق، يسقط من جناحيه التهاويل الأشياء المختلفة الألوان في الدر والياقوت**».(٣)

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جبريل: «**رأيته منهبطاً من السماء سادًا، عظم خلقه مابين السماء والأرض**».(٤)

---

(١) «التعريفات» للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، (صـ٣١٧).

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب الزهد ، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٧٤٢٠) (١٨/ ٣٢٣).

(٣) أحمد في «مسنده» رقم (٣٩٥٨) (٦/ ٢٩٤)، وحسنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٠٠).

(٤) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٠١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ووصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ سورة التكوير آية رقم: ١٩-٢١.

والملائكة ليسوا على درجة في الخلق والمقدار، فبعض الملائكة له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وجبريل له ستمائة جناح، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة فاطر آية رقم: ١.

وكذلك لهم عند ربهم مقامات متفاوته معلومة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ سورة الصافات آية رقم: ١٦٤.

خلق الكائنات سوى العباد

إن ابداع الخالق سبحانه وتعالى في خلق الكائنات لدليل على عظمة الخالق، فلقد تكلم القرآن العظيم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خلق الكون ونشأته، في كثير من الآيات والأحاديث، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة العنكبوت آية رقم: ٢٠.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ سورة ق آية رقم: ٣٨.

خلق الله الأرض بأربعة أيام قبل خلق السماء قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت آية رقم: ٩-١٢.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة الرعد آية رقم: ٣-٤.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ سورة الإسراء آية رقم: ٩٩، وغيرها من الآيات.

عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل**».[(١)]

وهذا نص واضح يتحدث عن مراحل بداية الخلق بتفصيل تام، بمدة ستة أيام متساويات أو ستة أزمنة، على اعتبار أن يوماً عند الله يختلف عليه عن الأيام المعلومة لنا في هذه الحياة الدنيا.

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، رقم (٦٩٨٥) (١٧/ ١٣١).

حكمة خلق الكائنات: خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون العظيم ليدل به عباده على كمال علمه وقدرته وعظمته، وجعل كل شيء فيه يسبح بحمد ربه.

وإذا عرف الإنسان ذلك، أقبل على عبادة ربه وحده لا شريك له، وحقق مراد الله منه بطاعته وطاعة رسله، وشارك المخلوقات الأخرى في كمال العبودية والطاعة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة الطلاق آية رقم: ١٢.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. سورة الذاريات آية رقم: ٥٦- ٥٨.

خلق الجن

الجن خلق آخر غير عالم الإنسان، وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والادراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمور، أهمها: أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان.

سموا جناً لاجتنانهم أي: استتارهم عن العيون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٢٧.

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الجن خلقوا من نار، قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ سورة الحجر آية رقم: ٢٧.

والمارج: اللهب المختلط بسواد النار.[1]

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».[2]

والجن خلقهم الله تعالى قبل الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ سورة الحجر آية رقم: ٢٦-٢٧.

فالجن مكلفون والغاية من خلقهم هي الغاية التي خلق الإنسان من أجلها قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات آية رقم: ٥٦. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٣٨. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ١٧٩.

---

(١) النووي في «شرحه لمسلم» (١٨/٣٢٣).

(٢) تقدم تخريجه صـ ٢٠٤.

خلق الإنس

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».[1]

لقد مرّ خلق أبي البشر آدم عليه السلام في ثلاثة أطوار رئيسة، نأخذها من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية.

وهذه الأطوار الثلاثة هي:

الطور الأول: طور التخليق، ويتضمن أربع مراحل رئيسة، هي:

المرحلة الأولى: مرحلة التراب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ٥٩.

والهاء في ﴿خَلَقَهُ﴾ تعود على آدم، أي: خلق الله آدم من تراب.

والمقصود من الآية: أن شأن عيسى عليه السلام كشأن آدم، وهو أنه خلق بلا أب، كما خلق آدم من التراب بلا أب ولا أم، فشبّه حاله بما هو أغرب منه إفحاماً للخصم.[2]

المرحلة الثانية: مرحلة الطين، - والطين ناتج عن مزج حفنة التراب المأخوذة من الأرض بالماء - قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ سورة ص آية رقم: ٧١.

---

(١) تقدم تخريجه صـ ٢٠٤.

(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المعروف بتفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (٢/٤٦).

وقال إبليس يتباهى بأصله الناري على طين آدم: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ١٢.

المرحلة الثالثة: الطين اللازب، - أي الطين الشديد المتماسك والكثيف والغليظ - وهذه المرحلة ناتجة عن تحويل الطين الرخو بسبب الماء في المرحلة السابقة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ سورة الصافات الآية رقم: ١١.[١]

المرحلة الرابعة: مرحلة خلقه من حمأ مسنون وصلصال كالفخار، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ سورة الحجر الآية رقم: ٢٦.

الطور الثاني: التصوير والتسوية بعد الخلق قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ سورة الأعراف الآية رقم: ١١. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سورة الحجر الآية رقم: ٢٨-٢٩.[٢]

الطور الثالث: نفخ الروح، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سورة ص الآية رقم: ٧١-٧٢.

---

(١) «تفسير السعدي» (صـ ٨٢٦).

(٢) و«تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (٢/ ٤٧٨).

لقد نفخ الله في جسد آدم من روحه، وهي نفخة غيبية خاصة تليق بجلال الله وعظمته.

وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: أن حرف ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ ليس للتبعيض، لأن روح الله سبحانه لا تتبعض ولا تتجزأ ولا تنقسم ليذهب جزء منها إلى آدم، أو إلى عيسى بن مريم عليهما السلام، إنما هي لبيان الجهة؛ أي هذه النفخة من عند الله، وهذه الروح التي جعلها الله في آدم منه سبحانه، أي من أمره وإرادته ومشيئته.

الأمر الثاني: إضافة الروح إلى الله ﴿مِنْ رُوحِي﴾ لتكريمها وتشريفها، كما أضيفت الناقة إلى الله في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٧٣، وكما أضيف البيت إلى الله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ سورة إبراهيم آية رقم: ٣٧.[١]

وكان نفخ الروح في آدم يوم الجمعة كما في حديث أبي هريرة المتقدم، وفيه: «**وخلق الله آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**».[٢]

وجاءت آيات كثيرة تتحدث عن مراحل خلق الإنسان بدقة عن التطورات التي تحدث في المراحل المختلفة للتخلق، بحيث تصف هذه الأحداث حسب تسلسلها الزمني.

---

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/٥٦٣_٥٦٤).

(٢) تقدم تخريجه صـ ٢٠٧.

وأطوار خلق الإنسان أربعة أساسية:

الطور الأول: الطين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ سورة السجدة آية رقم: ٧. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١٢. أي: استلَّ آدم من الطين.(١)

الطور الثاني: النطفة، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ سورة النحل آية رقم: ٤. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١٢-١٣.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان.(٢)

الطور الثالث: التخليق، وأطواره أربعة: العلقة، المضغة، العظام، اللحم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١٤.

الطور الرابع: النشأة أو الخلق الآخر، قال الله تعالى بعد التخليق، كما في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١٤. أي: ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.(٣)

وبعد أن خلق الله الإنسان جعله يمر بمراحل وأزمنة وأمكنة وأحوال، ثم ينتهي بالقرار والخلود، إما في الجنة أو النار.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٥٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٥٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٥٣).

والمراحل التي يمر بها الإنسان أربع:

المرحلة الأولى: بطن الأم، كما تقدم.

المرحلة الثانية: دار الدنيا، وهي أوسع من بطن الأم، ودار إقامته في الدنيا أكثر من مدة بطن الأم.

والحكمة من وجود الإنسان في هذه الدار أمران:

الأمر الأول: تكميل الإيمان.

والأمر الثاني: تكميل الأعمال الصالحة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ سورة لقمان آية رقم: ٢٠.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٢١-٢٢.

المرحلة الثالثة: دار البرزخ في القبر، وإقامة الإنسان فيه أكثر من إقامته في دار الدنيا.

فالقبر أول منازل الآخرة، فإما هو روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، والعياذ بالله.

فيبدأ فيه الجزاء، ثم ينتقل منه إلى دار الخلود؛ إما خلود في الجنة، أو النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ سورة فصلت آية رقم: ٣٠-٣٢.[1]

المرحلة الرابعة: دار الآخرة، وهذه الدار تكون مطلقة، وهي دار القرار، فمن آمن وعمل الصالحات فله الخلود في الجنات، ومن أشرك بالله وعمل المنكرات فجزاؤه جهنم خالداً فيها.

والداران الأوليان من عالم الشهادة، والأخريان من عالم الغيب، وكل حق، وكل سيراه الإنسان ويعلمه، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سورة الروم آية رقم: ١٤-١٦. وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة التوبة آية رقم: ٧٢.[2]

---

(١) «تفسير السعدي» (صـ ٦٣٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٨٦)، و«تفسير السعدي» (صـ ٧٥٠).

التعريف بالقدر

القدر لغة: أنه يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته.[١]

يطلق القدر على الحكم والقضاء،[٢] ويأتي القدر بمعنى التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة الأنبياء آية رقم: ٨٧. وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ سورة الفجر آية رقم: ١٦. أي نضيق عليه.[٣] وقدرت الشيء أقدره من التقدير، ومنه حديث: «**فإن غمَّ عليكم فاقدروا له**».[٤]

والقضاء لغة:

يقول ابن فارس: (القاف والضاد والحرف المعتل، أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاده لجهته).[٥] وقد يأتي القضاء بمعنى القدر.[٦]

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ٦٢).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور (٥/ ٧٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٥٥_٣٥٦).

(٤) البخاري في «صحيحه» كتاب الصوم، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا...، رقم (١٩٠٦) (٥/ ٢٣٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) «مقاييس اللغة» (٥/ ٩٩).

(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (صـ ٤٢٢).

المعنى الشرعي للقضاء والقدر:

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك ومشيئته له، ووقوعها على حسب ماقدرها وخلقه لها.(١)

انقسم العلماء في الفرق بالمعنى الشرعي للقضاء والقدر، إلى فريقين:

منهم فرق بينهما، والآخرون لم يفرقون بينهما، لعدم وجود دليل بالتفريق بينهما.(٢)

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر هو ركن من أركان الإيمان الستة.

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ سورة الفرقان آية رقم: ١-٢.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ سورة القمر آية رقم: ٤٩.

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ سورة الأحزاب آية رقم: ٣٨.

حديث جبريل في أركان الإسلام والإيمان والإحسان وفيه: «**فأخبرني عن**

---

(١) «شفاء العليل في القضاء والقدر» لابن القيم، تحقيق مصطفى الشلبي، مكتبة السوادي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، (١/٣٣_٤٤).

(٢) «القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة» (صـ ٤٠_٤٤).

الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».[1]

فهذه النصوص دالة على أن أركان الإيمان ستة، وتدل على وجوب الإيمان بها كلها.

ففي الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٨٥.

خلق أفعال العباد

قبل الشروع في هذه المسألة، أذكر مراتب القدر إجمالاً:

المرتبة الأولى: العلم، أي أن الله علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم.

قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ٥٩. وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة طه آية رقم: ٩٨. وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ سورة الحشر آية رقم: ٢٢.

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، رقم (٩٣) (١/ ١٠١) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسأل رجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعُلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: «**نعم، قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له**».(١)

المرتبة الثانية: الكتابة، أي أن الله كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ٣٨.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ سورة الأنبياء آية رقم: ١٠٥. وقوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة الأنفال آية رقم: ٦٨.

وحديث: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمس ألف سنة، وقال وكان عرشه على الماء**».(٢)

المرتبة الثالثة: المشيئة، أي أن ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ليس في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا له مشيئته، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد.

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، رقم (٦٥٩٦) (١٥/٢٠٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ...، رقم (٦٦٧٩) (١٦/ ٤١٤) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٦٦٩٠) (١٦/٤١٩) عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ سورة هود آية رقم: ٣٢-٣٣. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ٢٦.

وحديث أبي موسى الأشعري وفيه: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ماشاء**».[١]

المرتبة الرابعة: الخلق والتكوين، أي أن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد كما دلت على ذلك النصوص.[٢]

قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الصافات آية رقم: ٩٥-٩٦.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ سورة الرعد آية رقم: ١٦.

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ سورة غافر آية رقم: ٦٢.

وحديث زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن**

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، والشفاعة فيها، رقم (١٤٣٢) (٤/ ٢٦١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم (٦٦٣٤) (١٦/ ٣٩٣_٣٩٤).

(٢) «شفاء العليل» لابن القيم (١/ ٩١).

والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ... الحديث».[1]

الشاهد من الحديث: اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها.

والمقصود أن الإيمان لا يتحقق إلا بالإيمان بجميع مراتب القدر المذكورة، وبشموله لكل شيء في الكون مما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ سورة القمر آية رقم: **٤٩**.

وقع الخلاف بين الفرق في القدر على أقوال، وهي:

القول الأول: يقولون إنّ العباد مجبورون على أعمالهم، لا قدرة لهم ولا إرادة ولا اختيار، والله وحده هو خالق أفعال العباد، وأعمالهم إنما تنسب إليهم مجازاً.[2]

وهذا القول هو قول الجبرية[3] (الجهمية).

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ماعمل، رقم (٦٨٤٤) (٤٣/١٧).

(٢) «الفَرْق بين الفِرَق» لعبدالقاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م،(صـ٢١١)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٧٩٦/٢).

(٣) الجبر لغة: خلاف الكسر، والملك، والرجل الشجاع، وخلاف القدر. «القاموس المحيط» لفيروزآبادي صـ ٤٦٠.
أما الجبر في الاصطلاح : فمعناه نفي الفعل عن العبد، وإضافته إلى الرب، أي أن الله يجبر العباد على أعمالهم، والعباد مجبورون على أفعالهم، ليس لهم أي دور فيها، إذ هم كورقة الشجر تحركها الرياح، وإنما تضاف الأعمال إلى العباد على جهة المجاز فقط.
والجبرية قسمان: جبرية خالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل =

استدل الجبرية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ١٠٢. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ سورة الرعد آية رقم: ١٦. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة القصص آية رقم: ٦٨. وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سورة الإنسان آية رقم: ٣٠.[١]

القول الثاني: إنّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها.

وهذا القول قول القدرية[٢] المعتزلة.

فهم ينكرون مرتبة الإرادة والخلق، فينفونها عن الله، ويثبتونها للإنسان.

= أصلاً، وإنما هو كالريشة في مهب الريح.
وجبرية متوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. ومن أهم فرق الجبرية هم الجهمية. «الفرق بين الفرق» للبغدادي (صـ ٢١١)، و«المِلَل والنِّحل» لأبي الفتح محمد السهرستاني، تحقيق أحمد فهمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م (١/ ٧٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٧٩٦_٧٩٧).

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٦٤١_٦٤٣).

(٢) القدرية: اسم للذين ينفون القدر عن الأفعال الاختيارية من أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، خيراً كانت هذه الأفعال أو شراً، وأقوالاً كانت أو حركات أو اعتقادات أو إرادات . ويقولون : إن هذه الأفعال كلها لا تدخل تحت قدر الله تعالى.
والقدرية قسمان: قدرية أولى: وهي التي تنفي صفة العلم لله.
وقدرية ثانية: وهي التي تثبت لله العلم بلا علم، مع نفيها للقدر. وهم المعتزلة. «الفرق بين الفرق» للبغدادي (صـ ١٨ و١١٤_ ١١٦)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٣٨_٣٩).

استدل القدرية (المعتزلة) بأدلة عقلية، ثم أتبعوها بأدلة سمعية، منها:

الأدلة العقلية: أن هناك فرق بين الأمور الاختيارية والأمور الاضطرارية. ومنها: أن فعل العبد لو كان بخلق الله لما كان متمكناً من الفعل البتة؛ لأنه إن خلقه الله فيه كان واجب الحصول، وإن لم يخلقه الله فيه كان ممتنع الحصول. ومنها: لو كان الله خالقاً لأفعال العباد لبطل الثواب والعقاب.

الأدلة السمعية: بقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ سورة الكهف آية رقم: ٢٩. وقوله: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ سورة المدثر آية رقم: ٣٦-٣٧. وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة التوبة آية رقم: ٨٢.(١)

وقوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة التوبة آية رقم: ٩٥.(٢)

القول الثالث: يقولون إن الله تعالى خالق أفعال العباد وهي منهم كسب، وبهذا الأصل خالفوا المعتزلة القائلين بأن الله لا يخلق أفعال العباد، بل هم الخالقون لها.(٣)

وهذا قول الماتردية(٤) والأشاعرة.

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٣٢١) و(٢/ ٦٤٣).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٣٢١).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٦٣٩_ ومابعدها).

(٤) هم أتباع أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، وهو من أئمة الكلام، له مؤلفات كثيرة؛ منها: تفسيره المسمّى تأويلات أهل السنة، و بيان وهم المعتزلة، توفي ٣٣٣هـ. =

الخلاصة:

جاءت أدلة الجبرية لتثبت أن الله خالق أفعال العباد، وأن العباد لا قدرة لهم، بل مجبورون على أعمالهم، وهذا فيه حق من جانب وباطل من جانب آخر، وأدلتهم إنما تؤيد ما في مذهبهم من حق، وهو أن الله خالق أفعال العباد، أما دعوى جبر العباد، فهو مردود بالأدلة الأخرى، التي استدل بها المعتزلة.

وبالمقابل جاءت المعتزلة لتثبت أن العباد خالقون لأفعالهم، وأن الله غير خالق لأفعال العباد، وهذا أيضاً فيه حق وباطل، فإثبات أن العباد لهم إرادة ومشيئه داخلة تحت مشيئة الله، وأن أعمالهم هي أفعالهم هذا حق، تؤيده أدلتهم، أما دعوى أن الله غير خالق لأفعال العباد، فهو باطل، ترده أدلة الجبرية.

أما الماتردية والأشاعرة وإن توسطوا بين الفريقين فقالوا: إن الله خالق أفعال العباد وهي منهم كسب، وهم أقرب إلى مذهب السلف إلا أنهم اثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة، وسموها كسباً، وهذا هو الإشكال؟. المذهب الحق هو خلاصة القول الحق من كل مذهب من هذه المذاهب.

أن الله خالق أفعال العباد، والعباد فاعلون حقيقة، والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.[1]

= «لأعلام» للزركلي (٧/ ٢٤٢)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (١١/ ٣٠٠).

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٣/ ٣٠٣_ ٣٠٦)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٣٣١_ ٣٣٦) و(٢/ ٦٤٠_ ٦٤١).

التعريف بالهداية

الهداية لغة:

الهدى والهداية، مصدران لقولهم: هدَى يهدي، وهما مأخوذان من مادة «ه د ى» التي تدل على التقدم للإرشاد واللطف.(١)

لكنّ الله اختص الله لفظ الهدى بما تولّاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٢. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٥.

والاهتداء يختص بما يتحرَّاه الإنسان عن طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية أو الأخروية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ٩٧. وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٥٣.

قال ابن كثير: (الهداية الإرشاد، والتوفيق، وقد تعدّى الهداية بنفسها، كما في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ سورة الفاتحة آية رقم: ٦، فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ سورة البلد آية رقم: ١٠، أي بينا له الخير والشر، وقد تعدى بـ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة النحل آية رقم: ١٢١، وذلك بمعنى

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٦/ ٢٤_ ٤٣).

الإرشاد والدّلالة، وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ... الآية﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٤٣، أي وفقنا وجعلنا له أهلاً).[١]

أقسام الهداية

للهداية أقسام أربعة:

١- هداية عامة: وهي قرينة الخلق، وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ سورة طه آية رقم: ٥٠.

٢- هداية إرشاد وطريق: وهي بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه الهداية ليست مستلزمة للاهتداء.

وإن هذه الهداية لكتاب الله وكلامه، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ سورة الإسراء آية رقم: ٩. وهي للأنبياء كقول الله لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة الشورى آية رقم: ٥٢. وهي للصالحين وأولي النهى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ١٨١.

٣- هداية توفيق وإلهام: وهي مستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق، ومشيئة الله لعبده الهداية، وخلقه دواعي الهدى فيه، قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ سورة الحج آية رقم: ٢٤. وهذه

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٩).

الهداية لا تكون إلا من الله تعالى مقلب القلوب ومثبتها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ سورة القصص آية رقم: ٥٦.

٤- هداية مصير: وهي هداية يوم المعاد إلى طريق الجنة أو النار، قال الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ سورة الصافات آية رقم: ٢٢-٢٣.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ سورة محمد آية رقم: ٤-٦. فهذه هداية بعد قتلهم، فقيل المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.(١)

أسباب الهداية

أولاً: التوحيد، فهو أعظم أسباب الهداية، ولذا لما ذَكرَ الله الشرك قال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء آية رقم: ١١٦. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة التغابن آية رقم: ١١. فالموحِّد على خير، وهو إلى الخير أقرب. وقال على لسان خليله إبراهيم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ٨٢. فهذا وعدٌ بالهداية لأهل التوحيد.(٢)

---

(١) «شفاء العليل» لابن القيم (١/١٨١_٢٢٣) و«بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/٤٤٧).

(٢) «تفسير السعدي» (صـ ٢٨٢).

ثانياً: امتثال ما أَمَرَ الله بِهِ ورسولُه، واجتناب ما نَهى الله ورسوله عنه، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ سورة النساء آية رقم: ٦٦-٦٨. فمن عمل ما أمر به هدي إلى صراط مستقيم، وسعد وفلح في الدنيا والآخرة، ووفق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير.(١)

ثالثاً: الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله جل جلاله، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ سورة الرعد آية رقم: ٢٧. وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ سورة الشورى آية رقم: ١٣.(٢) وهذه الثلاث - أعني التوحيد والسلامة من الشرك، وفعل الطاعات وما أُمِرَ به العبد، والإنابة إلى الله - يجمعها قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر آية رقم: ١٧-١٨. فالذين اجتنبوا الشرك، وأنابوا إلى الله، واستمعوا القول فاتّبعوا أحسنه، هم أهل الهداية.(٣)

رابعاً: الاعتصام بالله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٠١. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/١٥٦)، و«تفسير السعدي» (صـ ١٨٨).
(٢) «تفسير السعدي» (صـ ٨٩٤).
(٣) «تفسير السعدي» (صـ ٨٥٢).

الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ سورة النساء آية رقم: ١٧٥.

والاعتصام بالله يكون بالتمسك بحبل الله المتين، التمسك بالقرآن العظيم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سورة الإسراء آية رقم: ٩. والتمسك بكتاب الله أمان بإذن الله من الضلال، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع: «**قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده – إن اعتصمتم به – كتابَ الله**».[١]

خامساً: الإخلاص لله تعالى.

سادساً: الدعاء والاجتهاد فيه، فقد جاء بحديث ابن مسعود: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**».[٢]

ولما سُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأي شيء كان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: «**كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».[٣]

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقم (٢٩٤١) (٤٠٢/٨) عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ماعمل، رقم (٦٨٤٢) (٤٣/١٧).

(٣) مسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (١٨٠٨) (٢٩٨/٦_٢٩٩).

فَدَلّ على اجتهاده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء، وإرشاده إليه، وتعليمه لأصحابه وأحفاده.

سابعاً: المجاهدة على فعل الطاعات، وترك المنكرات، والصبر على ذلك.

ثامناً: كثرة ذكر الله تبارك وتعالى، فإن الإعراض عن ذكر الله سبب في الضلال.

الهداية لها أسباب منها سؤال الله والضراعة إليه في طلب الهداية وطلب التوفيق وانشراح الصدر للحق، قال الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ سورة غافر آية رقم: ٦٠.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عن الله سبحانه وتعالى أنه قال: «**استهدوني أهدكم**».[1]

فالإنسان يسأل ربه أن الله يهديه ويشرح صدره للحق ويعينه على طاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا من أعظم الأسباب، الضراعة إلى الله وسؤاله -جل وعلا- الهداية، والإلحاح في ذلك، ولاسيما في أوقات الإجابة.

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٦٥١٧) (١٦/٣٤٨_٣٤٩) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إقراء الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ

قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ ﴾

هذه الآيات لها ارتباط بالآيات السابقة التي هي توجيهات للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله سبحانه؛ أن يخبر الناس بالأمور المتعلقة بالله سبحانه، وتنزيهه عما لا يليق به، وبيان أدلة ربوبيته في كونه، وهذه الأمور مهمة جداً لتعلقها بالذات الإلهية وهي من أسس الدين، ولابد أن تتبع هذه الأمور التي تتعلق بأركان الإيمان، وأخرى تتعلق بالحياة، ولابد لتلقي هذه الأمور من استعداد نفسي وعقلي، وحمل هذه المسؤولية بالتبليغ والتذكير، فللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمٌ كيف يؤدي هذه الرسالة، وهو يعلم بأنه بشر، وأنه معرض للنسيان، فجاءت الطمأنة من الله تعالى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من تخوفه من نسيان القرآن، وتخوفه من عدم استطاعته تأدية وظائف الرسالة على أتم وجه.

فقد تلقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن بواسطة أمين الوحي (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجبريل تلقاه عن رب العزة جَلَّ جَلَالُهُ، وليس لجبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالله جلت حكمته قد أنزل كتابه المقدس على خاتم أنبيائه بواسطة أمين الوحي جبريل، وعلمه جبريل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته، وقد وصف الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أمين على الوحي يبلغه كما سمعه عن الله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ سورة التكوير آية رقم: ١٩-٢١.

وقال تعالى في وصفه أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ سورة الشعراء آية رقم: ١٩٣-١٩٤.

أما حقيقة الكلام، وحقيقة المنزل فإنما هو كلام الله، وتنزيل رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ سورة النمل آية رقم: ٦.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، كيف كان يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فينفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»**. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقا»**.[1]

«كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما أتلي عنه - أي رفع عنه -، رفع رأسه».[2]

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي، باب، رقم (٢)(١/٤٦_٤٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب عرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتبرك به، رقم (٦٠١٢) و(٦٠١٣) (١٥/٨٧).

(٢) مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب عرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتبرك به، رقم (٦٠١٥) (١٥/٨٨) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البشارة بعدم النسيان

وقد كان صلوات الله عليه يعاني عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمر الله تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، وطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظاً في صدره، فلا يتعجل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقيه.

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ سورة طه آية رقم: ١١٤.

وأما تكفل الله تعالى له بالحفظ فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ سورة القيامة آية رقم: ١٦-١٩. ففي الصحيحين عن ابن عباس قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، قال جمعه لك في صدرك وتقرأه، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، قال: فاستمع له وأنصت، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ، ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه**».[1]

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الوحي، باب، رقم (٥) (١/٦٥)، ومسلم=

وقد كان جبريل يدارس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع، وهكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرة واحدة، وقبل وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عليه جبريل مرتين في رمضان فدارسه القرآن حتى لقد شعر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - من نزول جبريل مرتين عليه - بدنو أجله، كما في حديث عائشة عن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إن جبريل كان ينزل عليّ فيدارسني القرآن مرة واحدة في رمضان وقد نزل عليّ هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي**».[1]

وقد كان الأمر كذلك فقد انتقل في ذلك العام إلى جوار ربه صلوات الله وسلامه عليه وانقطع بوفاته نزول الوحي. وخاطب الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضمير المتكلم العظيم، فقال سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ سورة الأعلى آية رقم: ٦. لإشعاره بأن تثبيت القرآن في ذاكرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر هين عليه سبحانه، فلا تحمل همّ ذلك.

واستثنى الله عزوجل ما شاء أن ينسيه رسوله لحكمة يشاؤها سبحانه، كآية يريد نسخها، أو آية أن ينسيه إياها ليأتي بخير منها أو مثلها، وعندئذ

= في «صحيحه» كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، رقم (١٠٠٣) و(١٠٠٤) (٤/ ٣٨٧_ ٣٨٨).

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٢٤) (٨/ ٢٩٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٦٢٦٣) (١٦/ ٢٢٤_ ٢٢٥).

يكون الأمر راجعاً لإرادة الله تعالى، ولا يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقصراً ولا متهاوناً في الحفظ والاستذكار، ومشيئة الله في كل أمر لا تفارق حكمته، ومشيئته في كل أمر لا تكون إلا حكيمة، قال الله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة آية رقم: ١٠٦.

وكل هذا الموضوع يتعلق بالنسيان الكلي، أما النسيان العارض المؤقت الذي يتبعه استذكار، فقد يقع من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأحوال النادرة بمقتضى بشريته.(١)

ومعنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ للعلماء فيه أقوال، هي:(٢)

١- إنّ الاستثناء هنا: هو ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته.

٢- إنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ينسى بعض الآيات لتعليم أمته ماذا يصنعون إذا نسوا آية، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد أذكرني آية كذا وكذا، وكنت أنسيتها من سورة كذا وكذا**».(٣)

---

(١) «معارج التفكر» لحبنكة (١/ ٤٥٣_٤٥٤).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، (٨/ ٤٥٣)، و«الكشاف» للزمخشري (٦/ ٣٥٧_٣٥٨)، و«مفاتيح الغيب» للرازي (٣١/ ١٤٢_١٤٣).

(٣) البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، رقم (٥٠٣٧) و(٥٠٣٨) (١١/ ٢٨٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضائل القرآن ومايتعلق به، رقم (١٨٣٤) (٦/ ٣١٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣- إنّ النسيان هنا بمعنى الترك، والمعنى: إلا ماشاء الله أن تترك العمل به مما نسخه.

٤- إنّ الله ما أنسى نبيه شيئاً، ولكنه سبحانه بين لنبيه أنه إذا أراد أن ينسيه أنساه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ سورة الإسراء آية رقم: ٨٦.

قال القاسمي: (وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء: أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم، أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته).[١]

ومن المعجزات أن النبي ﷺ كان أمياً، ومع ذلك حفظ القرآن بطوله الذي هو عليه، فهذا شيء خارق للعادة، فيكون ذلك معجزاً.

وكذلك أن الله أخبر بأمر فوقع كما أخبر سبحانه، فسورة الأعلى مكية من أوائل ما نزل بمكة، أخبر الله فيها أنه سيقرئه فأقرأه كما أخبر، وأنزل عليه القرآن كما وعد، فوجه الإعجاز أنه إخبار بالغيب فوقع كما أخبر به.[٢]

قال الله تعالى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ ﴾

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ عطف على ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ للإيذان بقوة تمكينه ﷺ من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه ﷺ جُبِل عليها، أي: نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين، علماً وتعليماً واهتداءً وهداية،

---

(١) «محاسن التأويل» دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، (١٢٩/١٧).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (١٤٢/٣١).

فيندرج فيه تيسير تلقي طريقة الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة، والنواميس الإلهية؛ مما يتعلق بتكميل نفسه الكريمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكميل غيره.(١)

فيكون التيسير إما لحامل الرسالة، وإما أن يكون في الرسالة نفسها. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بهذه الرسالة في مجتمع مشحون بالعقبات والمؤذيات والمضادات، وفيه المخالفون الأعداء، والمقامون الأشداء، فحكمة ابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا تأباه، ولابد أن يواجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعوبات كثيرة وهو يؤدي رسالته.

فبقي تيسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكلف بإعداد نفسه وفكره وقلبه وجسده لتحمل أعباء رسالته بيسر وصبر وقوة وعزيمة.

والشخص إذا يسر للعمل أقبل عليه بانشراح صدر وطيب خاطر، فيعمله وهو قرير العين، فكان هذا العمل من جبلته وفطرته، وليس عملاً تكلفه وعهد إليه به وأريد منه أداؤه.

واليسرى: وصف المؤنث، مثل الأيسر وصف المذكر، كلاهما يدل على التفضيل؛ أي ذات اليسر الأكثر من كل الأمم السابقة.

وهذه الشريعة هي الخاتمة لكل الشرائع والديانات السابقة، وهذه الشريعة اليسر على الناس، والتي لا حرج فيها، ولا تكاليف عسرة فيها ولا إعنات ولا أصر كما حصل للأمم السابقة.

وجاءت البشارة للناس في هذه الآيات - وهي من بدايات السور نزولاً

(١) «روح المعاني» للألوسي (٣٠/١٠٧).

في مكة - أن رسالة هذا الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام رسالة تتضمن أحكاماً وتكاليف يسرى.

ثم جاء تأكيد وشرح وتفصيل يسر الشريعة فيما نزل من القرآن في العهد المكي والمدني.

والأولى حمل الآية على العموم: أي نوفقك للطريقة اليسرى في الدين، والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك.[١]

فخلاصة أقوال العلماء في معنى اليسرى:

١- الجنة: فيكون المعنى نسهلك أو نسهل عليك للعمل الصالح المؤدي إلى الجنة، جاء عن ابن مسعود.[٢]

٢- الطريقة اليسرى: أي التي هي أيسر وأسهل؛ وعلى هذا القول يتفرع معنيان لها:

المعنى الأول: نسهلك للطريقة السهلة الميسرة لحفظ كتاب الله، وهذا بالنظر إلى الآيات التي قبلها.

المعنى الثاني: سنهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتؤديه. وهذا قريب لما قبله.

٣- أي سنوفقك للشريعة السمحة السهلة، فنشرع لك شرعاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج، قاله الضحاك.[٣]

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٦٠١).

(٢) «تفسير الماوردي» (٤/ ٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٢/ ٢٢٩).

(٣) «تفسير الماوردي» (٤/ ٤٣٩).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ ﴾

بعد أن طمأن الله رسوله ﷺ بشأن الأمرين اللذين أهمّاه؛ من النسيان والعجز، وبشره ببشارتين عظيمتين: هما حفظ القرآن وعدم نسيانه، والتيسير والتوفيق للشريعة السهلة السمحة، وجَّه الله له الأمر بأن يقوم بتبليغ رسالته وبيانها وشرحها لهم، وإقامة الأدلة والبراهين التي تقنعهم بصحتها، ومعالجتهم بالترغيب والترهيب، وبمختلف وسائل الدعوة المؤثرة، وبتذكيرهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ودعوتهم إلى الحق، وبَيَّنَ من ينتفع بالذكرى وهو من يخاف الله، ومن يعرض عنها وهو من يعصي الله، ويكون والعياذ بالله في قعر جهنم.

فمدار تفسير الآية على معنى ﴿إِنْ﴾ في الآية، فلأهل العلم فيها أقوال:

القول الأول: إنّ ﴿إِنْ﴾ بمعنى حيث، وهو اختيار أبي حيان[1]، وابن كثير[2]، ومن المعاصرين الشنقيطي.[3]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما أنت بمحدث قوماً لا تبلغه

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان، (٨/ ٤٥٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٣).

(٣) «تتمة أضواء البيان» (٩/ ١٧٨)، وذكر جميع الأقوال والراجح منها الشنقيطي في كتابه «دفع إيهام والاضطراب عن آيات الكتاب» إشراف بكر بن عبدالله أبوزيد، دار عالم الفوائد، مكة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ (صـ ٣٩١).

عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).[1] وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله)[2]).[3]

وعلى هذا القول ينظر في الحالة التي أمامه فإن رأى انتفاع التذكير أقدم، وإن رأى أنه سيأتي بمفسدة أعظم أحجم.

ويشهد لهذا العمومات الواردة في اختيار أخف الضررين والمصالح والمفاسد ونحو ذلك.

وتكون تكرار الذكرى عند الظن بالفائدة ولإقامة الحجة كذلك، لأن العاقل لا يسعى إلى ما لا فائدة فيه. ويعرف ذلك - أي تيقن الفائدة - إعلام الله تعالى لأحد أنبيائه بأن هذا لا تنفع الذكرى له.

وقد يعلم ذلك بقرينة الحال، بحيث يبلغ ما أمره الله من البراهين والحجج، والشخص مصر على كفره عناداً ولجاجاً، فمثل هذا لا تجب له الذكرى دائماً.[4]

---

(١) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/ ٣٥)، لكن وقع في الإسناد انقطاع، وعبيد الله لم يسمع من عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم، باب من خص قوماً دون قوم كراهية ألّا يفهموا (١/ ٣٩١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٤٣).

(٤) «اللباب في علوم الكتاب» لأبي حفص عمر بن عادل الدمشقي، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م، (٢٠/ ٢٨٣) بتصرف.

القول الثاني: إن ﴿إِنْ﴾ بمعنى قد، فالمعنى فذكر فقد تنفع الذكرى، قاله مقاتل.(١)

القول الثالث: إن في الآية محذوف دل عليه السياق، فيكون المعنى: فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، فذكر الله سبحانه أشرف الحالين وهو الانتفاع بالتذكرة ونبه على الأخرى.

قال الجرجاني: (التذكير واجب وإن لم ينفع).(٢)

وقال الواحدي: (إن نفعت وإن لم تنفع ...)، اختار هذا القول البغوي،(٣) والشوكاني.(٤)

وقال الشوكاني:(وقد سبقهما - أي الواحدي والجرجاني - إلى القول به الفراء والنحاس).(٥)

ويُؤَيْدُ هذا القول بعدة أدلة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ١٦٤.

وقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ سورة طه آية رقم: ٤٣-٤٤. وقوله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ

---

(١) «زاد المسير في علم التفسير» لأبي الفرج ابن الجوزين المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م (٩/ ٩٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٢/ ٢٢٩).

(٣) «تفسير البغوي» (٨/ ٤٠١).

(٤) «فتح القديرط (٥/ ٥٦٦).

(٥) «فتح القدير» المرجع السابق.

جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة هود آية رقم: ٣٢. وغيرها.

قال ابن تيمية عن هذا القول: (وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر، وهو معلوم بالاضطرار من أمر الرسول، فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقلين الإنس والجن، لكن ليس هو معنى الآية).[١]

القول الرابع: إن بمعنى إذ؛ أي إذ نفعت، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٣٩. أي إذ كنتم فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم.[٢]

القول الخامس: إن بمعنى ما، وتكون ما مصدرية وهي بمعنى الظرف: أي فذكر ما نفعت الذكرى، لأن الذكرى نافعة بكل حال.[٣]

القول السادس: إنّها صيغة شرط أريد بها ذم الكفار واستبعاد تذكرهم.[٤]

القول السابع: وقيل معنى الآية: الإرشاد إلى التذكير بالأهم، أي ذكر بالمهم الذي فيه النفع دون مالا نفع فيه، فيكون المعنى: ذكر الكفار بالأصول التي هي التوحيد، لا بالفروع؛ لأنها لا تنفع دون الأصول، وذكر المؤمن التارك لفرض - مثلاً - بذلك الفرض المتروك، لا بالعقائد، ونحو ذلك؛ لأنه أنفع.[٥]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٩٥).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان (٨/ ٤٥٤)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٥٦٦).

(٣) «تفسير الماوردي» (٤/ ٤٤٠).

(٤) «البحر المحيط» لأبي حيان (٨/ ٤٥٤)، و«الكشاف» للزمخشري (٦/ ٣٥٩).

(٥) «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٥٦٦).

القول الثامن: إنَّ تخلف قوله: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا تأثير له في التذكير، فالمعنى: فذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ سورة النور آية رقم: ٣٣.

ولعل أقرب الأقوال: أن معنى الآية حجة على الكافر، وتذكرة للمؤمن، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ،[١] وهذا يدل على أن التذكير واجب في كل حال، والذكرى نافعة في كل حال كذلك، ولا يصح أن يكون لهذا الشرط مقابل؛ أي: وإن لم تنفع فلا تذكر، إذ لا وجه لتقييد التذكير بما إذا كانت الذكرى نافعة؛ لأنه لا سبيل إلى تعرف مواقع نفع الذكرى.

فالدعوة عامة، وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى أو عدمه أمر استأثر الله بعلمه، فأبو جهل مدعو للإيمان، والله سبحانه يعلم أنه لا يؤمن، لكن الله لم يخص بالدعوة من يرجى إيمانه دون غيرهم، والواقع يكشف المقدور.[٢]

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أمر بتذكير كل أحد، فإن انتفع كانت تذكرة تامة نافعة، وإلا حصل أصل التذكير الذي تقوم به الحجة، والأمر بالتذكير على الإطلاق كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ سورة الغاشية آية رقم: ٢١. غير مشروط بالنفع.[٣]

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢٢/٢٢٩)، و«فتح القدير» للشوكاني (٥/٥٦٦).

(٢) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٣٠/٢٨٤).

(٣) «فتح القدير» للشوكاني (٥/٥٦٧)، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٣٠/٢٨٤) بتصرف.

ومجيء ﴿إِنْ﴾ المقتضي عدم احتمال وقوع الشرط، أو ندرة وقوعه، فيه تنبيه على أن في القوم المذكرين من لا تنفعه الذكرى، ويفسر هذا ما جاء بعدها من قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾.[١]

والذكرى تشتمل على ثلاث حِكَم:

الأولى: خروج فاعلها من عهدة الأمر بها.

الثانية: رجاء النفع لمن يوعظ بها.

الثالثة: إقامة الحجة على الخلق.[٢]

والناس المدعوين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم يترجح لدى الناصح أنهم ينتفعون بالذكرى وهم أهل الإيمان، فهؤلاء يذكَّرون، كما قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الذاريات آية رقم: ٥٥. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ سورة ق آية رقم: ٤٥.

القسم الثاني: قسم مقطوع بعدم نفعه كمن بين له مراراً وتكراراً فما وجد منه إلا السخرية والاستهزاء من الدين ومحاربة أهله ومحاربة الواعظين، فهذا لا نفع في تذكيره.

القسم الثالث: قسم يظن أنه قد يتعظ وقد لا يتعظ، فهذا أيضاً يذكر، والله أعلم.[٣]

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٦/٩٨_١٠٢).

(٢) «دفع الإيهام والاضطراب» للشنقيطي (صـ ٣٥٠_٣٥٢).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٣١/١٤٥_١٤٦).

التعريف بالجزاء

الجزاء لغة:

جزاء اسم مصدر جَزَى، وهو المكافأة، يقال: هذا جزاء ما فعلت يداه: عقابه.

اصطلاحاً: مكافأة الله عباده يوم القيامة على حسب أعمالهم إن كانت خيراً فهو بالجنة، وإن كانت شراً فهو بالنار.

قال الله تعالى في جزاء الكافرين: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وِفَاقًا﴾ سورة النبأ آية رقم: ٢٤-٢٦. وقال الله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ سورة النبأ آية رقم: ٣٥-٣٦. وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ سورة الزلزلة آية رقم: ٧- ٨.

إن الإيمان باليوم الآخر، وما اشتمل عليه من أهوال ومشاهد، ابتداءً بحياة البرزخ إلى ما بعد ذلك من بعث، وحشر، وحساب، وجنة، ونار...، ضرورة حتمية، إذ هو من مقتضيات الإيمان بحكمة الله تعالى وعدله قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ سورة الجاثية آية رقم: ٢١ .[1]

والعاقل يرى في هذه الحياة، الطائعين القائمين بما أمر الله به وافترض عليهم، وبالمقابل يرى المكذبين لأمر الله المعرضين عن أوامره، ومع هذا فقد

(١) «تفسير السعدي» (صـ ٩٢٣).

لا يحصل أحدٌ منهم على جزائه في الدنيا، وحكمة الله تعالى تأبى أن تجعلهما متساويين: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سورة القلم آية رقم: ٣٥-٣٦.

والمتأمل لهذا الكون العظيم، بما اشتمل عليه من دلائل الربوبية والألوهية، يعلم علماً يقينياً بأن هذا لم يخلق عبثاً ولا سدى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١١٥.

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب الذي مدح الله تعالى المتصفين به في قوله تعالى: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ سورة البقرة آية رقم: ١-٣.

واليوم الآخر عالم آخر فيه أمور عظيمة، وأهوال جسيمة، لا ينجو منها إلا من نجاه الله فأسعده بطاعته، ولهذا كثرت أسماؤه وتعددت في القرآن الكريم، فمنها يوم البعث، ويوم الجمع، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التناد، ويوم الدين، ويوم الحسرة، يوم الفصل، الواقعة، والحاقة، والطامة، ويوم الحشر.[١]

جزاء أهل الإيمان

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته في الدنيا الذين قال لهم آمنوا بي واكفروا بالطاغوت، فأطاعوه وكفروا بالطاغوت وعملوا أعمالاً صالحة.

---

(١) «تفسير السعدي» (صـ ٢٩).

وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

وتأمل في قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم اقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة السجدة آية رقم: ١٧»[(١)]

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئاً، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**».[(٢)]

وعن المستورد بن شداد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**».[(٣)]

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤) (٧/ ٥٣٤)، وكتاب التفسير، باب ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، رقم (٤٧٧٩) و(٤٧٨٠) (١٠/ ٤٦٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها، باب صفة الجنة، رقم (٧٠٦٣) و(٧٠٦٤) و(٧٠٦٥) و(٧٠٦٦) (١٦٤_١٦٥). عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب الرقاق، باب مثل الدنيا في الآخرة، رقم (٦٤١٥) (١٤/ ٤٩٤).

(٣) مسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٧١٢٦) (١٧/ ١٨٩).

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٨٥. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة التوبة آية رقم: ٧٢ .

وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة النساء آية رقم: ١٣.

ومن الأسباب التي تجعل الشخص يركن إلى هذه الدنيا الفانية:

الجهل وعدم العلم بالحقائق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ سورة العنكبوت آية رقم: ٦٤. أي: الدائمة.

وحب الشهوات، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٤.

وحب المال والبنين، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ سورة الكهف آية رقم: ٤٦.

والغرور، قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ سورة الحديد آية رقم: ٢٠.

فيعلم حينئذ أن الناس في هذه الدنيا على قسمين: قسم ذكر بالله وبكلام الله فخشي الله، فينتفع بالذكرى وتنفعه كذلك، فله الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقسم أشقى يعرض عن الذكرى فلا تنفعه ولا ينتفع بها، فله الصلي -والعياذ بالله- في نار جهنم وبئس المصير، خالداً مخلداً فيها.

الخلود في النار

إن الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام وسمعوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يؤمنوا به فهؤلاء مخلدون في النار في الآخرة إن ماتوا على كفرهم، فقد عاشوا حياتهم الدنيوية في كفر بالله تعالى فاستحقوا أن يعيشوا الحياة الأخروية كلها في عذاب الله، وهذا من تمام عدل الله تعالى، حيث لم يسو بين المسلم المقر بالتوحيد والنبوات لكن تقع منه المعاصي وبين الكافر المنكر لاستحقاق ربه الخالق العبودية والمنكر لرسالات رسله، وقد أشار بعض العلماء إلى الجواب عن نصوص الشبهة التي طرأت للبعض عن الخلود؛ وحاصل الجواب أن الكفار لو عمروا ما عمروا فإنهم سيعيشون على الكفر، بل لو ردوا إلى الحياة رجعوا إلى ما كانوا عليه كما أخبر الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ سورة الأنعام آية رقم: ٢٨. ولذلك استحقوا ذلك الجزاء على وجه التأبيد، والأدلة على تأبيدهم في النار كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ سورة البينة آية رقم: ٦. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ سورة المائدة آية رقم: ٧٢. وحديث أبي هريرة عن

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**».[1] وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث طويل: «**إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر، أو غبرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: من تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا ياربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى فيقال لهم من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فكذلك مثل الأول**».[2]

خلود أصحاب الكبائر

اختلفت الفرق في صاحب الكبيرة من المسلمين هل يخلد في نار جهنم أم لا؟

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، رقم (٣٨٣) (٢/٣٦٤).

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب: إن الله لا يظلم مثقال ذرة، رقم (٤٥٨١) (١٠/٤٧_٤٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، رقم (٤٥٣) (٣/٢٩_٣١) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فذهبت الوعيدية،[1] وهم القائلون: بإنفاذ الوعيد والتخليد في النار لمن دخلها، ولا يرون اعتقاد خروج أهل الكبائر من المسلمين من النار، ولا قبول الشفاعة عنهم.[2]

لأنهم غلبوا نصوص الوعيد على نصوص الوعد.

ويقابل الوعيدية المرجئة[3] الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع من الكافر طاعة، والإيمان عندهم مجرد التصديق بالقلب، والأعمال ليست من الإيمان.

لأنهم غلبوا نصوص الرجاء على نصوص الوعيد.[4] فهذه مذاهب باطلة ومخالفة للكتاب والسنة.

فأهل السنة وسط كما تقدم معنا بين الفرق؛ فكذلك هم وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة، وبين موجبيه من المعتزلة والخوارج، فمن مات على كبيرة عندهم؛ فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، وإذا

---

(١) الوعيدية: نسبة للوعيد، والوعيد في اللغة التهديد.
والوعيدية يوجبون إنفاذ الوعيد في أصحاب الكبائر من أهل القبلة. فهم الخوارج والمعتزلة. «الملل والنحل» للشهرستاني (١/١٠٦_ وما بعدها)، «الفرق بين الفرق» للبغدادي (١/١١٧_ وما بعدها).

(٢) «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» لابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، السعودية، (٢/٤٥٤)، و «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/٤٣٢_٤٣٤).

(٣) «الملل والنحل» للشهرستاني (١/١٣٧).

(٤) «الفرق بين الفرق» للبغدادي (١/٢٠٢).

عاقبه بالنار فإنه لا يخلد خلود الكفار، بل يخرج من النار ويدخل الجنة.(١) فعصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، وإذا ماتوا قبل أن يتوبوا إلى الله تعالى فإن أمرهم إليه سبحانه وتعالى، إن شاء عذبهم بدخول النار واللبث فيها ما شاء الله، ولا بد أن يأتي يوم يخرج فيه جميع من في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار، لما في حديث الصحيحين في الشفاعة لمن دخل النار أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله فيقول الله: **«وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله»**.(٢)

وإن شاء عفا عنهم من أول الأمر، فهم تحت مشيئته سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ سورة النساء آية رقم: ٤٨. ولكن الذنوب التي لها تعلق بحق العباد لا بد من استيفائها لأصحابها أو إرضائهم من قبل الله عز وجل عن عباده الذين عليهم الحقوق. وأما من أخلص التوبة لله تعالى فلا يتناوله الوعيد المذكور لأن الله تعالى يغفر ذنوبه جميعاً بالتوبة النصوح وتواترت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ سورة الشورى آية رقم: ٢٥. وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ سورة طه آية رقم: ٨٢.

---

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٥٢٤_ ٥٢٨).

(٢) البخاري في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب كلام الرب عزوجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٠) (١٧/ ٥١٧_ ٥١٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب حديث الشفاعة، رقم (٤٧٨) (٣/ ٥٧_ ٦٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ودخول عصاة المؤمنين الجنة وإخراجهم من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أذن بالشفاعة، فيجيء بهم ضبائر،[1] ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حَميل السيل»** فقال رجل من القوم: كأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان بالبادية.[2]، ولمسلم من حديث جابر بن عبد الله يرفعه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن أقواما يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة»**.[3]

وهؤلاء الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة يسميهم أهل الجنة بالجهنميين، فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيدخلون الجنة، يسمون الجهنميين»**.[4] والأحاديث في هذا كثيرة.

---

(١) أي جماعات من الناس، يقال رأيتهم ضبائر أي جماعات في تفرقة. «لنهاية في غريب الحديث والأثر» لأبي السعادات ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م (٣/ ٧١).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم (٤٥٨) (٣/ ٣٧).

(٣) مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (٤٧١) (٣/ ٥٠).

(٤) البخاري في «صحيحه» كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٦) (١٥/ ٨٥).

التعريف بالفلاح

الفلاح لغة:

مصدر فَلَح، بمعنى ظفر بما يريد، ويقال: أفلح: ظفر.

قال ابن فارس: (فلح) الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شَقٍّ، والآخر على فوز وبقاء. فالأول فلحت الأرض: شققتها، والأصل الثاني الفلاح: البقاء والفوز.[١]

والفلاح الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير في الدنيا والآخرة.

فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز.

وفلاح أخروي وذلك بأربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل.[٢]

الفلاح في الدنيا والآخرة

كثير من الناس يظن أن الفلاح والسعادة في الحصول على حظوظ الدنيا العاجلة من وفرة المال وحصول الجاه والتمتع بالملذات، وصنف آخر يرى أن السعادة والفلاح هي في السبق في مجال الصناعة والاختراع، والترفع على الآخرين، وبناء على هذه النظرية صرفوا على تلك الأشياء التي هي في

---

(١) «مقاييس اللغة» (٤/ ٣٥٩).

(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (صـ ٤٩٧).

نظرهم مقومات السعادة والفلاح، فهي شغلهم الشاغل وهمهم الذي ملك عليهم كل تفكيرهم، وهي موضوع أحاديثهم وهي مجال تنافسهم وايم الله لقد ضلوا وما كانوا مهتدين.

فلقد هلك وشقي بالمال قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ولقد هلك بالملك والسلطان فرعون الذي قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ سورة الزخرف آية رقم: ٥١.

ولقد هلك بالترف وتناول الملذات القرون الأولى ذات الترف والنعيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ سورة الفجر آية رقم: ٦-١٤.

وهكذا إذا لم يكن الإيمان هو الموجه، وإذا لم تكن العقيدة الصحيحة هي الأساس فسدت الدنيا وأنهار البنيان وأصبحت الأعمال كلها لا فائدة منها لا عاجلاً ولا آجلاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ سورة النور آية رقم: ٣٩. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ سورة إبراهيم آية رقم: ١٨.[1] وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ سورة الفرقان آية رقم: ٢٣. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ

(١) «تفسير السعدي» (صـ ٣٠ و ١٠٩٠) بتصرف.

نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ سورة الكهف آية رقم: ١٠٣-١٠٥.

وقد سمى الله ما يعيشه الكفار في هذه الدنيا بما فيه من الأموال والجاه والسلطان والقوة، والصناعات والاختراعات سمى ذلك كله متاعاً قليلاً مؤقتاً زائلاً تعقبه النار والخسار؛ قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٩٦. بل لقد حكم الله على الكفار بما فيهم ملوكهم ورؤساؤهم وعلماؤهم ومفكروهم حكم عليهم كلهم بأنهم شر الدواب وشر البرية - قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنفال آية رقم: ٥٥. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة آية رقم: ٦.

يعجب كثير من الناس بزهرة الدنيا ومتاعها فيتعلق بها وينسى الآخرة قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سورة البقرة آية رقم: ٢١٢. وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ سورة آل عمران آية رقم: ١٤.

لقد تحقق إفلاس الكافرين وخسارتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم يفقدون مقومات الفلاح والسعادة التي من أبرزها الإيمان بالله واليوم الآخر، فلقد حكم الله بالفلاح للمؤمنين قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ

فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ١-١١.

ومن أسباب الفلاح: التوبة إلى الله من الذنوب والإيمان بالله والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ سورة القصص آية رقم: ٦٧.[1]

ومن أسباب الفلاح ملازمة ذكر الله تعالى قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الجمعة آية رقم: ١٠. ومن أسباب الفلاح تحلية النفس بالصفات الحميدة وإبعادها عن الصفات الذميمة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ سورة الشمس آية رقم: ٨-٩.

ومن أسباب الفلاح: إنفاق المال في طاعة الله والابتعاد عن الشح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة التغابن آية رقم: ١٦.[2] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ سورة الأعل آية رقم: ١٤-١٥.

قدم أصل دعوة الأنبياء، بعقيدة واحدة، وعبادات متغايرة

اتفقت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين على أصول جامعة؛ فأصول دعوة الرسل واحدة ، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٤)، و«تفسير السعدي» (صـ ١٧٣٠).

(٢) «تفسير السعدي» (صـ ١٠٢٥).

تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ سورة الشورى آية رقم: ١٣؛ ولهذا كانت عقيدة الأنبياء واحدةً، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ٥٢، وإن اختلفت الشرائع، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة آية رقم: ٤٨، ولو وقعت الشرائع على خلاف تلك الأصول لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة، بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به، قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ سورة المؤمنون آية رقم: ٧١.

وإذا تأملنا قصص المرسلين التي وردت في القرآن الكريم، وما حدث لهم مع أممهم، نجد أنهم اتفقوا جميعاً على دعوة واحدة، هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واجتناب الشرك، وإن اختلفت شرائعهم.(١)

بل إن مسألة الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ووسائله هي القضية الأولى التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بين الرسل وأممهم، قال الله تعالى مُخبراً عما أرسل به جميع الرسل:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ سورة الأنبياء آية رقم: ٢٥. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ سورة النحل آية رقم: ٣٦. وقال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ

(١) «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» لمحمد الأمين الأرمي الهرري الشافعي، إشراف هاشم محمد مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م، (٣١/ ٣٦٢).

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ سورة النحل آية رقم: ٢.[١]

فجميع الرسل كان أول وأهم ما دعوا إليه هو التوحيد، توحيد الله بالعبادة وتقواه وطاعته وطاعة رسله. وكما ذكر الله عنهم ذلك على سبيل التعميم، فقد ذكر عن بعضهم على التفصيل:

فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٥٩، وكذلك هود عليه السلام قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٦٥، وكذلك شعيب عليه السلام قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف آية رقم: ٨٥، وإبراهيم عليه السلام قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ سورة العنكبوت آية رقم: ١٦.

فالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك، وصحة العقيدة وسلامتها هما الأصل الأول في دعوة المسلمين، من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، وهذا هو الغاية الأولى التي بها تصلح كل شؤون الدنيا والدين، فإذا صحت العقيدة أذعن الناس لله وحده وأطاعوا رسله واستقاموا على شرعه على هدى وبصيرة، ومن ثم يصلح كل شيء من أمورهم الدينية والدنيوية.

وهذا لا يعني أن الرسل لم يهتموا بإصلاح المفاسد الأخرى، ولا أنهم لم يدعوا إلى الفضائل الأخرى، بل جاءوا بشرائع ومناهج تسير عليها الأمم

(١) «الرسل والرسالات» لعمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، (صـ ٢٤٦).

وتصلح شؤون حياتها الدنيا، وأمروا بالمعروف والإصلاح والعدل، ونهوا عن المنكر والفساد والظلم، وأمروا بكل خير وفضيلة، ونهوا عن كل شر ورذيلة تفصيلاً وإجمالاً.(١)

لكن أعظم الفضائل توحيد الله تعالى وتقواه، وأعظم المفاسد الشرك بالله، وهو الظلم العظيم. فكان ذلك أعظم وأول ما أرسل الله به الرسل.

وهكذا كل دعوة لا تقوم على هذا الأساس - في أي زمان ومكان - فإنها دعوة قاصرة وناقصة، ويخشى أن يكون نصيبها إما الفشل، وإما الانحراف عن الصراط المستقيم، أو هما معاً، لأن هذا أصل عظيم من أصول الدين متى غفلت عنه الأمم وقعت في كارثة الشرك والابتداع. نسأل الله السلامة والعافية من ذلك.

وكذلك إذا تأملنا القرآن الكريم، وسيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة، نصل إلى حقيقة واضحة كل الوضوح، وهي: أن غالب آيات القرآن الكريم جاءت في تقرير عقيدة التوحيد، توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والدعوة إلى إخلاص العبادة والدين لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد الإيمان والإسلام.(٢)

أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى غالب وقته - بعد النبوة - في تقرير الاعتقاد والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة، وهذا هو مقتضى لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢١_ ٢٢).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٣٦_ ٣٨)، و«الإتقان» للسيوطي (٦/ ٢١٤٤_ ٢١٥١).

فالدعوة إلى العقيدة تأصيلاً وتصحيحاً شملت الجزء الأكبر من جهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقته في عهد النبوة. فقضى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثاً وعشرين سنة في الدعوة إلى الله، هي عهد النبوة، منها ثلاث عشرة سنة في مكة، جُلها كانت في الدعوة إلى تحقيق لا إله إلا الله محمد رسول الله أي الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة والألوهية وحده لا شريك له، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وسائر الوسطاء، ونبذ البدع والمعتقدات الفاسدة.

ومنها عشر سنين في المدينة، وكانت موزعة بين تشريع الأحكام، وتثبيت العقيدة، والحفاظ عليها، وحمايتها من الشبهات، والجهاد في سبيلها، أي أن أغلبها في تقرير التوحيد وأصول الدين، ومن ذلك مجادلة أهل الكتاب، وبيان بطلان معتقداتهم المحرفة، والتصدي لشبهاتهم وشبهات المنافقين، وصد كيدهم للإسلام والمسلمين، وكل هذا في حماية العقيدة قبل كل شيء.

فأي دعوة لا تولي أمر العقيدة من الاهتمام كما أولاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علماً وعملاً؛ فهي ناقصة.

فكان قتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس على العقيدة (عقيدة التوحيد) حتى يكون الدين لله وحده، تلك العقيدة المتمثلة في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، على الرغم أن سائر المفاسد والشرور كانت سائدة في ذلك الوقت، ومع ذلك فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل الغاية من قتال الناس تحقيق التوحيد، وأركان الإسلام، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا**

مني دماءهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».[1]

وهذا لا يعني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبال بالأمور الأخرى من الدعوة إلى الفضائل والأخلاق الحميدة من البر والصلة والصدق والوفاء والأمانة، وترك ضدها من الآثام والكبائر كالربا والظلم وقطيعة الرحم.

وحاشاه ذلك، لكنه جعلها في مرتبة بعد أصول الاعتقاد، لأنه يعلم وهو القدوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الناس إذا استقاموا على دين الله وأخلصوا له الطاعة والعبادة حسنت نياتهم وأعمالهم، وفعلوا الخيرات واجتنبوا المنهيات في الجملة، وأمروا بالمعروف حتى يسود بينهم ويظهر، ونهوا عن المنكر حتى لا يظهر ولا يسود.

إذن فمدار الخير على صلاح العقيدة، فإذا صلحت استقام الناس على الحق والخير، وإذا فسدت فسدت أحوال الناس، واستحكمت فيهم الأهواء والآثام، وسهلت عليهم المنكرات.[2]

وإلى هذا يشير الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».[3]

---

(١) البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، رقم (٢٥) (١/١٤٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها، رقم (١٢٨) (٢/١٥٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «الرسل والرسالات» للأشقر (صـ٢٤٨_٢٥١).

(٣) البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢) (١/٢٢٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الحرام، رقم (٤٠٧٠) (١١/٢٩_٣٠) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإضافة إلى كونه دعا إلى إخلاص الدين لله، وقاتل الناس حتى يشهدوا بكلمة الإخلاص، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو إلى جميع الأخلاق الفاضلة، جملة وتفصيلاً، وينهى عن ضدها، جملة وتفصيلاً.

وكما اهتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإصلاح الدين، كان يعمل على إصلاح دنيا الناس، إنما كان ذلك كله في مرتبة دون الاهتمام بأمر التوحيد وإخلاص الدين لله وحده، وهذا ما يجهله أو يتجاهله المنازع في هذه المسألة.

والمتأمل للقرآن الكريم، المنزل على رسول لله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين ومنهاجاً للمسلمين إلى يوم الدين، نجد أن أغلبه في تقرير العقيدة وتقرير أصولها، وتحرير العبادة والطاعة لله وحده لا شريك له، واتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(١)

فإن أول شيء نزل به القرآن، وأمر الله تعالى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعله هو أن يكبّر الله تعالى ويعظمه وحده، وأن ينذر الناس من الشرك، وأن يتطهر من الآثام والذنوب وغيرها، ويهجر ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويصبرعلى ذلك كله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ سورة المدثر آية رقم: ١-٧.

ثم استمر القرآن الكريم يتنزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائر العهد المكي، لتثبيت العقيدة وتقريرها، والدعوة إلى إخلاص العبادة والدين لله وحده، واتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٤٢_ ٤٤) و(١/ ٢٢٨).

لذلك نجد أن أغلب آيات القرآن الكريم في العقيدة: إما بصريح العبارة، وإما بالإشارة، حيث إن معظم القرآن جاء في تقرير توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وأصول الإيمان والإسلام، وأمور الغيب والقدر خيره وشره، واليوم الآخر، والجنة وأهلها ونعيمها، والنار وأهلها وعذابها (الوعد والوعيد)، وأصول العقيدة تدور على هذه الأمور.

وقد ذكر العلماء أن القرآن: ثلث أحكام، وثلث أخبار، وثلث توحيد. وهذا ما فسروا به قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**»، فإن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] اشتملت على أعظم التوحيد والتنزيه لله تعالى، وآيات الأحكام لاتخلو من ذكر للعقيدة وأصول الدين، وذلك من خلال ذكر أسماء الله وصفاته، وطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر حكم التشريع ... ونحو ذلك.

وكذلك آيات الأخبار والقصص أغلبها في الإيمان والاعتقاد، وذلك من خلال أخبار المغيبات والوعيد واليوم الآخر، ونحو ذلك.

وبهذا يتحقق القول: بأن القرآن الكريم هو الهادي إلى التي هي أقوم إلى يوم القيامة، وغالب آياته في تقرير العقيدة والدعوة إليها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها.[2]

---

(١) مسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم (١٨٨٣) (٦/ ٣٣٥) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «الإتقان» للسيوطي (٦/ ٢١٥١_ ٢١٥٦).

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩ ﴾

إن كل التعليمات الأساسية الموجودة في القرآن من الدعوة والأخلاق شرعها الله للأقوام السابقة جمعاء، وإنما خصت صحف إبراهيم وموسى بالذكر لشهرتها عند العرب، أو من قبيل دلالة الجزء على الكل.

وقد تمت بحمد الله وتوفيقه هذه التأمّلات لسورة الأعلى، فإن أحسنت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي

فلله الحمد في البدء والختام وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

كتبه

د. إيهاب عبده محمد حيدرة

٢٥/رمضان/١٤٣٧هـ

٢٠١٥/٧/١٢م

الفهرس

- المقدمة ٩
- التعريف بالسورة ١١
- تسبيح الله سبحانه وتعالى لنفسه ١٨
- تسبيح الملائكة ٢٠
- تسبيح الأنبياء ٢٣
- تسبيح المؤمنين ٢٧
- تسبيح الكائنات ٢٩
- تسبيح أهل الجنة ٣٣
- صفة العلو ٣٥
- التعريف بالخلق ٤٢
- أول ما خلق الله ٤٨
- خلق الملائكة ٥٢
- خلق الكائنات سوى العباد ٥٤
- خلق الجن ٥٦
- خلق الإنس ٥٨
- التعريف بالقدر ٦٤
- الإيمان بالقضاء والقدر ٦٥

- خلق أفعال العباد ٦٦
- التعريف بالهداية ٧٣
- أقسام الهداية ٧٤
- أسباب الهداية ٧٥
- إقراء الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ٧٩
- البشارة بعدم النسيان ٨١
- التعريف بالجزاء ٩٣
- جزاء أهل الإيمان ٩٤
- الخلود في النار ٩٧
- خلود أصحاب الكبائر ٩٨
- التعريف بالفلاح ١٠٢
- الفلاح في الدنيا والآخرة ١٠٢
- قدم أصل دعوة الأنبياء، بعقيدة واحدة، وعبادات متغايرة ١٠٥

تم بحمد الله